المواهب العلية
شرح منظومة
تحفة الشافعية

حسام لطفي الشافعي

شبكة الألوكة
www.alukah.net

(الجزء الأول)

المواهب العليَّة

شرح منظومة

تحفة الشافعيَّة

شرح الفقير إلى عفو ربه

حسام لطفي الشافعي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على عبده ورسوله ومصطفاه، نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .. وبعد

فهذا شرح محرر على منظومة (تحفة الشافعية)[1] لفضيلة الشيخ الدكتور/ محمود الكبش[2] –وفقه الله – والتي هي بمثابة المدخل لدراسة مذهب السادة الشافعية الكرام

والمنظومة على بحر الرجز، تقع في (٢٦٣) بيتا، تعرض فيها الناظم – وفقه الله – لذكر معالم المذهب، كسيرة الإمام، وأطوار المذهب، وأصوله، ومصنفاته، ومصطلحاته..

وإنما وقع الاختيار عليها نظرا لشمولها لأغلب الموضوعات التي يحتاجها طالب الفقه عموما، والمنتسب لمذهب الشافعي على وجه الخصوص، مع سهولة في العبارة ووضوح في الألفاظ، بحيث لا يكاد الطالب يحتاج لفك شيء من مفرادت النظم، مما يسهل ويساعد على تمام حفظها وفهمها، والموفق من وفقه الله تعالى.

---

[1] قد اعتمدت في الجزء المتعلق بسيرة الإمام الشافعي على ما كتب في مذهب الشافعية، خصوصا ما كتبه الدكتور أكرم القواسمي – وفقه الله – مع شيء من التهذيب والاختصار ، فقد جرى الناظم – فيما يظهر لي– على نفس ترتيب موضوعاته، لذلك أهملت العزو فيما ذكر من أخبار ؛ اعتمادا على ذكره في كتاب الدكتور القواسمي.

[2] أستاذ أصول الفقه المشارك بكلية الشريعة في جامعة أم القرى – مكة المكرمة

وللشيخ –وفقه الله – منظومات مماثلة في المذاهب الثلاثة الأخرى (الحنفي –المالكي –الحنبلي)

والله أسأل أن يجعله لوجه خالصا وألا يكون فيه لأحد غيره شيئا..

عن عمر رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أيها الناس، إنما الأعمال بالنية، وإنما لامرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن هاجر إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه."[٣]

[٣] رواه البخاري (٦٩٥٣)

المقدّمَة

الحَمْـــــدُ للهِ الَّـــذِي عَلَّمَنَـــا	١	وَبِنُصُـــــوصِ شَـــرْعِهِ فَقَّهَنَـــا
ثُمَّ الصَّـــلَاةُ مَـــعْ سَـــلَامٍ رَافِـعِ	٢	عَلَـى رَسُـولِنَا الأَمِـينِ الشَّـافِعِ
وَبَعْـــدُ؛ فَالفِقْــهُ أَجَـلُّ مُرْتَقَـى	٣	وَأَشْـرَفُ العُلُـومِ طُـرًّا مُطْلَقَـا
وَمِـــنْ أَبَـــرِّهِ بِـــنَصِّ الشَّـــارِعِ	٤	مَـذْهَبُ وَاضِعِ الأُصُولِ الشَّافِعِي
لِـذَا؛ نَظَمْـتُ تُحْفَـةً لِلْمُنْتَسِـبْ	٥	أَوْدَعْتُهَـا مَعَالِمًـا مِمَّـا يَجِـبْ
عَلَيـــهِ؛ كَالسِّـــيرَةِ وَالأَطْـــوَارِ	٦	وَكَأُصُـــــولِهِ مَـــــعَ الآثَارِ
وَأَسْـــأَلُ اللهَ السَّـــدَادَ وَالْهُـــدَى	٧	لِكُـلِّ مَـنْ بِفِقْهِـهِ قَـدِ اهْتَـدَى

– مقدمة النظم –

اعلم أن المقدمة التي يصدر بها العلماء كتبهم نوعان: مقدمة كتاب، ومقدمة علم؛ فمقدمة العلم: هي ما يعنون له بالمبادئ العشرة، والتي نظمها العلامة محمد بن على الصبان الشافعي بقوله:

إن مبادئ كل فن عشره	الحد والموضوع ثم الثمره
وفضله ونسبة والواضع	والاسم الاستمداد حكم الشارع
مسائل والبعض بالبعض اكتفى	ومن درى الجميع حاز الشرفا

ومقدمة الكتاب[٤]: ألفاظ مخصوصة دالة على معانى مخصوصة قُدِّمت أمام المقصود لارتباط المقصود[٥] بها وانتفاع بما في هذا المقصود، سواء توقفَ عليها الشروع في المقصود أو لا.

ومما ينبغي على المصنفين ذكره فيها ثمانية أمور: أربعة على سبيل الوجوب الصناعي[٦]، وأربعة على سبيل الاستحباب الصناعي؛ فالأربعة الواجبة: هي البسملة، والحمدلة، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وآله، والشهادتان؛ فيتوجه اللوم على المصنف إن ترك شيئا منها.

والأربعة المستحبة هي: براعة الاستهلال، وقول: أما بعد، وتسمية نفسه وكتابه، والسبب الباعث لتأليف الكتاب.

إذا عرفت هذا.. تبين لك أن الناظم – وفقه الله – قد وفَّى بمعظم تلك الأمور، فقال:

(الحمد لله الذي علمنا وبنصوص شرعه فقهنا)

أي: أثنى على الله بذكر محاسنه محبة وتعظيما وإجلالا (الذي علمنا وبنصوص شرعه فقهنا)، وفقه النصوص: فهمها؛ إذا الفقه في اللغة: الفهم مطلقا، وشرعا: اسم لكل الشريعة والدين، ولو معامله وأدبا واعتقادا، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»، قال الحافظ ابن حجر في

---

[٤] وعليها اقتصر الناظم وفقه الله

[٥] كمصطلحات المؤلف في كتابه، كالرموز التي يشار بما لأصحاب الحواشي والشروح نحو: حفني شرواني، حلي، بصري، كردي، حج، م ر، ز ، ، سم، ق ل، شقي، وغير ذلك، وكقول بعض العلماء إذا قلت: شيخنا.. فهو فلان، وإذا قلت: شيخي.. فهو فلان، وإذا قلت: الشارح.. فمرادي به فلان.

[٦] هو ما يتحتم على المولفين ذكره بحيث يتوجه إليهم اللوم والاعتراض إن تركوه؛ فليس المراد به الوجوب الشرعي الذي يترتب الإثم على تركه، والثواب على فعله.

الفتح: ومفهوم الحديث: أن من لم يتفقه في الدين، بأن لم يتعلم قواعد الإسلام وما يتصل بها من الفروع.. فقد حرم الخير. أهـ، وقال الحليمي من أصحابنا: إن تخصيص اسم الفقه بهذا الاصطلاح حادث، والحق: أن اسم الفقه يعم جميع الشريعة.أهـ

وأما الفقه في اصطلاح الفقهاء؛ فهو: حفظ طائفة من مسائل الأحكام الشرعية العملية الواردة في الكتاب والسنة وما استنبط منهما، سواء كان حفظها مع أدلتها أو مجردا عنها.

قال الناظم وفقه الله:

(ثم الصلاة مع سلام رافع على رسولنا الأمين الشافع)

(ثم الصلاة) مصدر صلّى، وهي كما قال أبو العالية: صلاة الله: ثناؤه على المصلي عليه في الملأ الأعلى، وصلاة الملائكة: الدعاء والاستغفار، وصلاة العباد: طلب زيادة الصلاة من الله علي المصلى عليه، (مع سلام) بمعنى: التسليم، وهو السلامة من العيوب والنقصان، أو التحية على (رافع) اسم فاعل من رفع، فبهما يرفع العبد المنازل عند الله، لامتثاله أمر الله تعالى في قوله: "صلوا عليه وسلموا تسليما"

على رسولنا) وهو: رجل بالغ عاقل من بني آدم سليم الخلقة عن منفر طبع[٧] ودناءة أب وزنا أم، وقد أوحى إليه بشرع وأُمر بتبليغه؛ فإن لم يؤمر بتبليغه؛ فنبي فقط (الأمين) أي: المستأمين على كل شيء، المؤمن لكل من اتبعه؛ فهو فعيل بمعنى اسم المفعول

[٧] أي: مقارث لبعثته؛ فلا ينافي طروء بعض المنفرات لبعض الأنبياء، كعمى سيدنا يعقوب، وبلاء سيدنا أيوب صلى الله عليهم وعلى نبينا وسلم.

أو الفاعل (الشافع[٨]) اسم فاعل من شفع، والشفاعة: كلام الشفيع وهي شفاعة الرسول لأمته يوم القيامة , وهي التماس العفو أو التخفيف عن الغير من غير دليل.

قال الناظم وفقه الله:

(وبعد: فالفقه أجلٌّ مرتقى وأشرف العلوم طرا مطلقا)

(وبعد)كلمة يؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى أسلوب، أي: من البسملة والحمدلة والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله (فالفقه) الذي سبقت الإشارة إليه (أجلٌّ) أعظم (مرتقى) اسم مفعول من إرتقى بمعنى ارتفع وصعد، والمعنى: أن الفقه هو أعظم ما يستحق أن يجهد نفسه ويتعبها من أجله (و) هو (أشرف العلوم طرًّا) جميعا (مطلقا)

قال الناظم وفقه الله

(ومن أبره بنص الشارع مذهب واضع الأصول الشافعي)

(ومن أبره بنص الشارع) أي: مع نصوص الشرع[٩] (مذهب واضع الأصول الشافعي)، والوضع في كلامه – وفقه الله – أي: ابتداء التدوين، فالشافعي هو أول من دون في هذا الفن، وتبعه الناس على ذلك.

قال الناظم وفقه الله:

(لذا؛ نظمت تحفة للمنتسب أودعتها معالما مما يجب)

---

[٨] وفيه براعة استهلال

[٩] ولعله يشير بذلك أن فضل مذهب الشافعي على سائر المذاهب.

(لذا؛ نظمت تحفة) يبين الناظم سبب وضعه لهذا النظم (تحفة الشافعية)، وهو ما تقدم ذكره، من كون مذهب الشافعي هو أبر المذاهب في التعامل مع نصوص الشارع، فالنظم موضوع (للمنتسب) أي: لمذهب الشافعي (أودعتها معالما) معالم الشيء: ما يستدلُّ بها عليه، والمعنى: أن هذا النظم موضوع ليستدلَّ به المنتسب لمذهب الشافعي عليه، ومدخل إلى مذهب الشافعي، يبدأ به الطالب ليتعرف من خلاله على معالم المذهب (مما يجب) أي: وجوبا صناعيا لا شرعيا، بحيث يترتب على الجهل به اللوم، لا الإثم والعقاب.

قال الناظم وفقه الله:

(عليه؛ كالسيرة والأطوار وكأصوله مع الآثار)

(عليه) أي: المنتسب لمذهب الشافعي (كالسيرة) لإمام المذهب (والأطوار) التي مر به مذهبه (وكأصوله) التي بنى عليها الإمام فقهه (مع الآثار) أي: المصنفات المشهورة في مذهبه.

قال الناظم وفقه الله

(وأسأل الله السداد والهدى لكل من بفقهه قد اهتدى)

آمين..

سِيرةُ الإمامِ الشّافعِيّ رحِمَهُ اللهُ تعَالى

هُــوَ الإِمَـــامُ القُرَشِـــي مُحَمَّــدُ	٨	وَالِـــدُهُ إِدرِيـــسُ نِعْـــمَ الوَلَـــدُ
وَجَــدُّهُ العبَّـاسُ؛ لَكِـنْ يُنْسَـبُ	٩	لِشَـــافِعٍ، وَجَــــدُّ ذَا المطَّلِـــبُ
وَيَنْتَهِـــي بِجَــدِّ مَـــوْلَانَا النَّـــبِي	١٠	عَبْـدِ مَنَـافٍ: نَسَـبُ الحُـرِّ الأَبِي
فَهْـوَ لِـذَاكَ: **الشَّـافِعِيُّ المطَّلِـبِي**	١١	مُكَـــرَّمٌ بِعِلْمِـــهِ وَالنَّسَـــبِ

– اسم الإمام الشافعي ونسبه –

استهل الناظم الكلام عن الإمام الشافعي بذكر نسبه الشريف –رضي الله عنه – فهو كما قال الربيع المرادي:

حدثنا الشافعي: محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن **السائب بن عبيد بن عبد يزيد** بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر[١٠] بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن الهميسع، ابن عم رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

فالإمام الشافعي هو الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي، يكنى بأبي عبد الله، ولكنه اشتهر باسمه أكثر مما اشتهر بكنيته، خلافا لما اشتهر به الإمام أبي حنيفة

[١٠] قال المَيْمُوني: سمعت أحمد بن حنبل، يقول لأبي عثمان بن الشافعي: إني لَأُحِبُّك لثلاث خلال: أنك رجل من قريش، وأنك ابن أبي عبد الله، وأنك من أهل السنة.
وقريش هو فهر بن مالك، وإليه ينسب القرشيون

وعليه فالإمام الشافعي يلتقي في النسب مع سيدنا رسول الله محمد في عبد مناف بن قصي، فكرمه الله تعالى بالنسب الشريف كما كرمه بالعلم.

أما عن مولد الإمام الشافعي، فيقول الناظم وفقه الله:

فِي مِائَةٍ وَبَعْدُ خَمْسُونَ حَكَوْا	١٢	مِوْلِدَهُ بِغَزَّةٍ، وقِيلَ: أَوْ
بِعَسْقَلَانَ، وَالصَّحِيحُ: الأَوَّلُ	١٣	وَهْوَ الَّذِي عَنِ الكَثِيرِ يُنْقَلُ

– مولده –

اتفقت كتب السير والتراجم على أن مولد الإمام الشافعي كان في سنة ١٥٠ هجرية، ووردت بعض الروايات المتكلفة بأن الإمام الشافعي ولد يوم مات الإمام أبو حنيفة النعمان، وقد رد الحافظ أبو بكر البيهقي على ذلك بقوله: (وهذا التقييد باليوم لم أجده في سائر الروايات، فأما بالعام فإنه عام واحد فيما بين أهل التواريخ.)

ولم يرتض الحافظ ابن حجر تضعيف أسانيد تلك الروايات، لكنه حاول التوفيق بينها بقوله: (... لكن هذا اللفظ يقبل التأويل فإنهم يطلقون اليوم ويريدون مطلق الزمان)

مكان الولادة

أما مكان مولده فقد وردت روايات بأنه ولد في مدينة **غزة** على ساحل فلسطين على البحر المتوسط، وهو قول الأكثرين، وأخرى بأنه ولد في مدينة **عسقلان** الواقعة إلى الشمال من غزة، وأخرى بأنه ولد في **اليمن**، وهي رواية ضعيفة، أخرج أحد طرقها ابن أبي حاتم في كتابه آداب الشافعي ومناقبه، وقد نقل الحافظ ابن حجر تخطئة

الإمام الذهبي هذه الرواية موافقا له على ذلك فقال: (... قال الحافظ شمس الدين الذهبي شيخ شيوخنا: هذا القول غلط إلا أن يريد باليمن القبيلة).

ويمكن الجمع بين روايات غزة وعسقلان بأوجه عدة، أحسن الحافظ ابن حجر في عرضها بقوله: (.. عسقلان هي الأصل في قديم الزمان وهي وغزة متقاربتان، وعسقلان هي المدينة، فحيث قال الشافعي غزة أراد القرية وحيث قال عسقلان أراد المدينة)

وجمع بين الروايات أيضاً برواية أخرى نقلها عن الحاكم النيسابوري صاحب المستدرك الذي أخرجها بسنده إلى الإمام الشافعي يقول: (ولدت بغزة وحملتني أمي إلى عسقلان) ، وهي الرواية التي قدمها الحافظ أبو بكر البيهقي على غيرها

ولا ضير من حصول هذا الاختلاف الذي يبدو أنه قديم، لما أخرجه الحافظ أبو بكر البيهقي بسنده إلى تلميذ الشافعي: الربيع بن سليمان المرادي قوله: (مولد الشافعي رضي الله عنه بغزة أو عسقلان) لذلك قال الحافظ ابن حجر لما ذكر هذه الرواية: (وقد كان الربيع بن سليمان صاحب الشافعي يتردد في ذلك)

وَقَبْلَ أَنْ يُفْطَمَ **مَاتَ الْوَالِدُ**	١٤	فَقَدَّرَ اليُتْمَ عَلَيْهِ الوَاحِدُ
فَحَمَلَتْهُ أُمُّهُ لِيَنْشَا	١٥	مَعْ قَوْمِهِ بِمَكَّةٍ، وَيَغْشَى
مَجَالِسَ العِلْمِ بِهَا، ثُمَّ أَتَمّْ	١٦	حِفْظَ الكِتَابِ والمُوَطَّأَ المُهِمّْ
وَأَكْثَرَ التَّرْدَادَ لِلقَبَائِلِ	١٧	وَمِنْ هُذَيْلٍ نَالَ خَيْرَ نَائِلِ
فَقَرَأَ الشِّعْرَ القَوِيَّ غَضَّا	١٨	وَأَتْقَنَ اللُّغَةَ فِيهَا أَيْضَا
صَافِيَةً بِدُونِ لَحْنٍ أَوْ خَطَا	١٩	بِضَادِهَا وَعَيْنِهَا وَالحَا وَطَا

– نشأته –

تعددت الروايات وكثرت في أن أم الإمام الشافعي حملته بعد مولده بسنتين إلى مكة، وكان أبوه إدريس بن العباس قد مات بعد مولده بقليل في عسقلان ، هذا ما ارتضاه أكثر علماء السير والتراجم؛ أي أن الإمام الشافعي وصل مكة طفلا رضيعا سنة ١٥٢ هجرية.

أما عن والده إدريس بن العباس، فلم تنقل عنه كتب التراجم شيئا كثيرا، سوى أنه كان يقيم في المدينة المنورة فظهر فيها بعض ما يكرهه فخرج إلى عسقلان ، فأقام بها ومات فيها بعد مولد إمامنا الشافعي بقليل

سكن الإمام الشافعي وأمه مكة المكرمة لينشأ في طفولته بين بني قومه بني المطلب القرشيين، وفي هذه الفترة الزمنية من حياته بدأت تتشكل شخصيته العلمية وتظهر بدايات ملكته الفقهية، والمستقرئ للروايات التي نقلها علماء التراجم والسير عن حياة الإمام الشافعي في هذه الفترة يستخلص منها أن التطور العلمي له فيها كان على مرحلتين:

المرحلة الأولى

وهي تعلمه القراءة والكتابة، ورافق ذلك حفظه للقرآن الكريم، حيث أتم جمعه في سن السابعة وقيل في التاسعة من عمره، وكل الروايات تُجمع على أن حفظه للقرآن كان مبكرا؛ فقد أكرمه الله تعالى بذاكرة قوية مكنته من سرعة التلقي والحفظ مع صفاء الذهن ونقاء السريرة، فبدأ بحفظ القرآن ثم أشعار العرب ثم موطأ الإمام مالك – كما سيأتي بيانه – وكلها في سن مبكرة وفترة زمنية قصيرة

وفي ذلك أخرج الحافظ أبو بكر البيهقي بسنده إلى الإمام الشافعي يقول: (كنت وأنا في الكتاب أسمع المعلم يلقن الصبي الآية فأحفظها أنا، ولقد كان الصبيان يكتبون إملاءهم، فإلى أن يفرغ المعلم من الإملاء عليهم ..كنت قد حفظت جميع ما أَملَى، فقال لي ذات يوم: ما يحل لي أن آخذ منك شيئا)

ونقل الحافظ ابن حجر عن الخطيب البغدادي رواية أخرجها بسنده إلى الإمام الشافعي يقول: (حفظت القرآن وأنا ابن سبع وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر)

ويمكن القول بأن ابرز من أخذ عنه الإمام الشافعي في هذه المرحلة كان إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين المقرئ، وكان من قراء مكة في زمانه.

وأخرج ابن أبي حاتم والحافظ أبو بكر البيهقي بسنديهما إلى الإمام الشافعي يقول:

أخبرنا إسماعيل بن قسطنطين قال: (قرأت على شبل، وأخبر شبل أنه قرأ على عبد الله بن كثير، وأخبر عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد، وأخبر مجاهد أنه قرأ على ابن عباس، وأخبر ابن عباس أنه قرأ على أُبي، وقال ابن عباس: وقرأ أُبي على النبي صلى الله عليه وسلم)

وفي هذه الرواية بيان لسلسلة تلقي الإمام الشافعي للقرآن الكريم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتداء من شيخه إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين.

المرحلة الثانية

وهي التي تردد خلالها الإمام الشافعي – بعدما اشتد عوده – على قبائل العرب حول مكة، وقبيلة هذيل منها خاصة[١١]

[١١] وهي قبيلة عربية عدنانية انتشرت عشائرها بالقرب من مكة،

وقد قصد الإمام الشافعي من تردده على البوادي في تلك السن المبكرة تلقي اللغة العربية الفصحى من العرب الأقحاح، الذين لم يخالط لسانهم العربي شيء من اللحن أو لغات العجم، وأمتزج تلقيه للعربية من أفواه الأعراب بسماع أشعارهم وحفظ أنسابهم وأخبارهم، وكان لصحبته لقبيلة هذيل في حلها وترحالها كبير الأثر في اكتسابه الملكة اللغوية التي يستطيع بها أن يفقه كلام الله تعالى وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام ، ولا شك أن فقه اللغة العربية يعتبر من أهم وسائل الاجتهاد، والتي حصلها الإمام الشافعي من منابعها ومصادرها في قلب بوادي العرب، حتى أضحى ممن تؤخذ عنهم اللغة، وفي ذلك أخرج ابن أبي حاتم والحافظ ابن عبد البر بسنديهما إلى عبد الملك بن هشام النحوي صاحب المغازي – وكان بصيرا بالعربية – قال: (الشافعي ممن تؤخذ عنه اللغة). وأخرج الحافظ أبو بكر البيهقي كذلك بسنده إلى الربيع بن سليمان المرادي يقول: لو رأيت الشافعي وحسن بيانه وفصاحته لتعجبت منه، ولو أنه ألف هذه الكتب على عربيته التي كان يتكلم بها لم يقدر على قراءة كتبه.)

ونقل الحافظ ابن حجر عن الآبري رواية أخرجها في كتابه مناقب الشافعي بسنده إلى الإمام الشافعي يحدث عن نفسه قائلا: (.. وخرجت عن مكة – يعني بعد أن بلغ – فلزمت هذيلا بالبادية أتعلم كلامها وآخذ اللغة وكانت أفصح العرب)

ولم تقتصر الفوائد التي حصلها الإمام الشافعي من إقامته مع قبائل العرب في البوادي على تلقي العربية وفقهها، بل حفظ إلى جانب ذلك أشعار العرب فحسن لذلك منطقه، وكان صاحب بلاغة وبيان، وقد أخرج الحافظ أبو بكر البيهقي بسنده إلى الأصمعي يقول: (صححت أشعار الهذليين على شاب من قريش بمكة يقال له محمد بن إدريس الشافعي)

وأفاد الإمام الشافعي أيضا من إقامته مع قبائل العرب في البوادي بأن عرف الأنساب وما يتصل بها، والتي كانت معرفتها عند العرب معدودة من أعلى المعارف التي يتفاخرون بها، وإن كان دين الإسلام الحنيف قد نهى عن العصبية واعتبرها من صفات الجاهلية؛ إلا أنه رغب في تعارف الشعوب والقبائل، كما في قوله تعالى: { يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير }[الحجرات: ١٣]، ومن هذا الباب تعلَّم الإمام الشافعي الأنساب والسير في البوادي وأبدع فيها، وقد أفرد الحافظ أبو بكر البيهقي بابا بعنوان: ((ما يستدل به على معرفته –أي الإمام الشافعي – بالأسامي والأنساب والتواريخ))، جمع فيه الكثير من الروايات الدالة على فقه الإمام الشافعي لهذا العلم وتفوقه فيه، منها ما أخرجه بسنده إلى مصعب بن عبد الله الزبيري قال: (ما رأيت أحدا أعلم بايام الناس من الشافعي)

ومما سبق يتضح جليا أن إقامة الإمام الشافعي بين قبائل العرب، وهذيل منها خاصة، في البوادي حول مكة، تعتبر المحطة الثانية الهامة في حياته العلمية، والتي كانت بمثابة اللبنة الأساسية لما علاها من علومه في الفقه والحديث وغيرهما، ومن الجدير بالذكر هنا ما أخرجه الحافظ أبو بكر البيهقي بسنده إلى محمد ابن بنت الشافعي يقول: (أقام الشافعي على قراءة العربية وأيام الناس عشرين سنة)، وقال: (ما أردت بهذا إلا الاستعانة على الفقه).

والذي يظهر من مجموع الروايات التي وصفت إقامته في قبيلة هذيل أنها لم تكن إقامة متصلة، بل كان يتردد عليها من الحين إلى الآخر ويطيل المكث، خاصة أن عشائر هذيل انتشرت حول مكة كما سبق بيانه، وقد امتد حاله هذا لسنوات.

وفي هذه المرحلة الثانية من إقامة الإمام الشافعي في مكة المكرمة تفقه في حلقات العلم في المسجد الحرام، وأخذ عن كبار علماء مكة آنذاك الذين اتخذوا من المسجد الحرام مدرسة كبرى لتدريس علوم الشريعة على تعددها، ومن أهم ما حصله الإمام الشافعي في هذه المرحلة حفظه لموطأ الإمام مالك بعد أن كان قد حفظ القرآن الكريم في طفولته وأخذ اللغة والشعر والأنساب عن هذيل في صباه

ومن الثابت عند علماء السير والتراجم حفظ الإمام الشافعي للموطا في هذه المرحلة، وفي ذلك أخرج الحافظ أبو بكر البيهقي بسنده إلى الإمام الشافعي يقول: (حفظت الموطا قبل أن آتي مالك بن أنس..)

حَيَاتُـــــهُ مَراحِـــلُ الـــتّعَلُّمِ	٢٠	فَهَاكَهَـــا بِالِاخْتِصَـــارِ تَغْـــنَمِ:
بَـــدَأَهَا (**بِمَكَّـــــةَ**) المكَرَّمَـــةْ	٢١	أَخَــذَ فِيهَــا الفِقْــهَ عَمَّــنْ عَظَّمَــهْ
أَبْـــرَزُهُمْ: نَجْــلُ عُيَيْنَــةَ الأَجَــلّْ	٢٢	حَدِيثُـــهُ لَـــيْسَ يُشَـــذُّ أَوْ يُعَـــلّْ
ومِـــنْهُمْ: الزَّنْجِـــيُّ مُفْـــتِي مَكَّـــةِ	٢٣	فَقِيهُهَـــا بِالحِفْـــظِ وَالتَّثَبُّـــتِ

– مراحل تعلمه –

أولا: المرحلة المكية

شيوخ الإمام الشافعي في مكة المكرمة

إن من أبرز من تلقي عنهم الإمام الشافعي في هذه المرحلة في مكة:

١– سفيان بن عيينة:

هو سفيان بن عيينة بن ميمون أبو محمد الكوفي ثم المكي، ولد في الكوفة سنة ١٠٧ هجرية وتوفي في مكة سنة ١٩٨هـ، ويعتبر من كبار تابعي التابعين، كان إماما في الحديث وعلومه، فهو محدث الحرم المكي في زمانه، ومن حفاظ الحديث الثقات وقد اتفق العلماء على إمامته.

ولعل اتصال الإمام الشافعي – رغم صغره – به وأخذه عنه هو الذي زرع بذور فقه مدرسة أهل الحديث وأصولها في عقلية الإمام الشافعي آنذاك، ونمت هذه البذور وعلت سيقانها على يد الإمام مالك بن أنس فيما بعد.

وقد أخرج ابن أبي حاتم بسنده إلى الإمام الشافعي يقول: (ما رأيت أحدا من الناس فيه من آلة العلم ما في سفيان بن عيينة، وما رأيت أحدا أكفَّ عن الفتيا منه، وما رأيت أحدا أحسن لتفسير الحديث منه). وهذه الرواية لا تدل على أخذ الإمام الشافعي عن سفيان بن عيينه وإعجابه به فحسب؛ بل وعلى تأثره بطريقته تأثراً حمله على الثناء عليه بمثل ما أثنى.

وأخرج ابن أبي حاتم أيضا بسنده إلى الإمام الشافعي يقول: (لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز)، ولا أحسبه يقصد بعلم الحجاز هنا إلا فقه مدرسة أهل الحديث التي كان الإمام مالك حامل لوائها آنذاك.

ومن الروايات المفيدة هنا والتي تشير إلى أن الصلة بين الإمام الشافعي وشيخه سفيان بن عيينة هي التي وجهته نحو مدرسة أهل الحديث ما أخرجه الحافظ ابن عبد البر بسنده إلى سفيان بن عيينة، وقد قيل له: ها هنا فتى – يعنون الشافعي – يقول: عليكم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوا الرأي، فقال سفيان: جزى الله هذا من فتى خيرا، ثم قال: قال الله عز وجل: { قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له

إبراهيم } [الأنبياء: ٦٠] وقال الله تعالى: { إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى } [الكهف: ٢١٣]

ومن الدلائل على كثرة أخذ الإمام الشافعي عن شيخه سفيان بن عيينه، أنه روي عنه في كتابه (الرسالة) وحده ثلاثة وأربعين حديثا نبويا في سائر أبواب الفقه والمسائل ذات الصلة بالأصول.

٢- مسلم بن خالد الزنجي:

هو مسلم بن خالد بن مسلم القرشي المخزومي بالولاء، أصله من الشام، ولقب بالزنجي لحمرته، وقيل على الضد لبياضه وشقاره، ومثل ذلك مشهور في لهجات العرب، وهو شيخ الحرم ومفتي مكة وإمامها في زمانه، وكان اشتغاله بالفقه أكثر منه بالحديث[١٢]، توفي سنة ١٧٩ هجرية في مكة على أصح الروايات.

أخذ عنه الإمام الشافعي الفقه في مكة في هذه المرحلة من حياته، وكثرت مجالسته له، والذي يظهر أن اتصال الإمام الشافعي به كان أكثر من غيره من علماء مكة آنذاك وعلى رأسهم سفيان بن عيينة[١٣]، حتى إن الإمام النووي لما ترجم للإمام الشافعي

---

[١٢] ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن الزنجي هو أحد أبرز فقهاء تابعي التابعين الذين آل إليهم فقه الصحابة الذين استوطنوا مكة المكرمة، وفي مقدمتهم سيدنا عبد الله بن عباس –رضي الله عنهما –، الذي ورث علمه من فقهاء التابعين في مكة: عطاء بن أبي رباح، ومجاهد بن جبر، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعنهم وعن غيرهم أخذ الفقه عدد من صغار التابعين في مكة، من أبرزهم ابن جريج ، وعنه أخذ مسلم بن خالد الزنجي وغيره من فقهاء تابعي التابعين في مكة، وفي حلقة درس الزنجي في المسجد الحرام تفقه الإمام الشافعي في صباه، ليؤول إليه بذلك فقه الصحابة والتابعين الذين استوطنوا مكة، وبقي الإمام الشافعي في مكة يأخذ عن فقهائها ويسمع من محدثيها؛ فقد ذكر الحافظ أبو بكر البيهقي له تسعة عشر شيخا في مكة وحدها .

[١٣] مع الأخذ بعين الاعتبار أن وفاة مسلم بن خالد الزنجي كانت قبل وفاة سفيان بن عيينة بقرابة العشرين عاما، ولقد عاصر ابن عيينة ظهور المذهب القديم للإمام الشافعي ونشره له في مكة ولعل ما يبرر كثرة رواية الإمام الشافعي عن سفيان بن عيينة اتصاله به في صباه وفي كهولته أيضا

ترجمة موجزة في كتابه الأسماء واللغات لم يذكر من شيوخه قبل الإمام مالك إلا مسلم بن خالد الزنجي.

فائدة: المستقري للروايات التي تحكي أخذ الإمام الشافعي عن مسلم بن خالد الزنجي، يظهر له أن الزنجي لم يكن مجرد فقيه حفظ عنه الإمام الشافعي – وهو شاب صغير – مسائل الفقه فحسب؛ بل كان مربيا ومرشدا له علاوة على كونه معلما.

وفي بيان ذلك أخرج الحافظ أبو بكر البيهقي بسنده إلى الإمام الشافعي يقول: (خرجت أطلب النحو والأدب فلقيني مسلم بن خالد الزنجي فقال: يا فتى!ـ من أين أنت؟ قلت: من أهل مكة. قال: وأين منزلك بها؟ قلت: بشعب الخيف. قال: من أي قبيلة أنت؟ قلت: من ولد عبد مناف. قال: بخ بخ!، لقد شرفك الله في الدنيا والآخرة، ألا جعلت فهمك هذا في الفقه، فكان أحسن بك).

فائدة: لا يفهم من الرواية السابقة ن الشافعي ترك الخروج إلى البوادي لتعلم الفضاحة والشعر لكن الذي يظهر – جمعا بين الروايات المتعددة في هذا الأمر –، أن تردد الإمام الشافعي على البوادي بقصد تعلم الفصاحة وسماع أخبار العرب وأشعارهم كان غاية لذاتها، ثم أصبح تعلمه لها وسيلة لفقه القرآن والسنة بالنظر إلى إدراكه لأهمية فهم العربية في تعلم الفقه الذي حضه عليه شيخه مسلم بن خالد الزنجي، وهذا ما صرح به محمد ابن بنت الشافعي عندما قال عن جده: (أقام الشافعي على قراءة العربية وأيام الناس عشرين سنة، وقال: ما أردت بهذا إلا الاستعانة على الفقه).

وهذه الرواية ينبغي أن تفهم مع ما أخرجه الحافظ أبو بكر البيهقي بسنده إلى مصعب بن عبد الله الزبيري يقول: كان الشافعي في ابتداء أمره يطلب الشعر وأيام الناس والأدب ثم أخذ في الفقه بعد).

أثر الإمام مسلم بن خالد الزنجي في شخصية الإمام الشافعي

وقد عزز الزنجي ثقة الإمام الشافعي بنفسه عندما أذن له بالإفتاء في سن مبكرة، وفي ذلك أخرج الحافظ ابن عبد البر بسنده إلى الحميدي يقول: (قال مسلم بن خالد الزنجي للشافعي: أفت يا أبا عبد الله قد آن لك أن تفتي، وهو ابن خمس عشرة سنة).

ولا شك أن هذا الإذن من مفتي مكة وإمامها للإمام الشافعي – وهو شاب صغير – كان له بالغ الأثر في ثقته بنفسه وفي علو همته وشحذ عزيمته لسبر أغوار علوم الشريعة، وقد تجلت هذه الثقة بالنفس التي زرعها الزنجي في شخصية الإمام الشافعي عندما دخل به على الإمام مالك، وعندما أتي به إلى الخليفة هارون الرشيد، وفي قوة مناظرته لمخالفيه في الرأي مع حسن الأدب ورفعة الخلق كما سيأتي بيانه.

رحلة الإمام الشافعي إلى شيخه الإمام مالك

ولما شعر أنه أخذ عن علماء مكة حاجته، حمله تعطشه للعلم ومحبته لصحبة العلماء إلى شد الرحال إلى إمام دار الهجرة مالك بن أنس الأصبحي، بعدما حفظ موطأه في سن مبكرة كما سبق بيانه، والرواية الأشهر أن أول رحلة كانت له إلى الإمام مالك وهو في **سن الثالثة عشر**، فقد أخرج الحافظ أبو بكر البيهقي بسنده إلى الإمام الشافعي يقول: (أتيت مالك بن أنس وأنا ابن ثلاث عشرة سنة...)، وذكر الحافظ

ابن حجر طريقة أخرى لهذه الرواية، ولم يعقب عليها بطعن أو نقد ، وهو ما ارتضاه الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات، أي أن ذلك كان سنة ١١٣ هجرية.[١٤]

فائدة: الذي يظهر أنه مع ملازمة الشافعي لمالك كان يتحين الوقت بعد الآخر، فيقوم برحلات في البلاد الإسلامية يستفيد فيها ما يستفيده المسافر الأريب من علم بأحوال الناس وأخبارهم... وكان يذهب إلى مكة يزور أمه ويستنصح بنصائحها وكان فيها نبل وأدب وحسن فهم، فلم تكن ملازمته لمالك به ممانعة من سفره واختياراته الشخصية.

هذا التوفيق في أوجه من رد الروايات التي ذكرت أن سن الإمام الشافعي كانت ثلاث عشرة سنة عندما رحل إلى الإمام مالك[١٥]

---

[١٤] والذي يظهر من مجموع الروايات –خاصة رواية إذن الزنجي له بالإفتاء في سن الخامسة عشر –، أن الإمام الشافعي رحل إلى الإمام مالك في المدينة المنورة سنة ١٩٣ هجرية، وقرأ عليه الموطأ، لكن صحبته له لم تأخذ طابع الملازمة إلا في السنوات الأخيرة من حياة الإمام مالك، الذي توفي سنة ١٧٩ هجرية رحمه الله ، أما قبل ذلك فقد كان الإمام الشافعي يتردد على مكة المكرمة ليأخذ عن علمائها، . وربما مكث مع قبائل العرب حولها حينا من الزمن، وإلى هذا خلص العلامة محمد أبو زهرة فقال في كتابه المفيد (الشافعي حياته وعصره) ..

[١٥] وقد ذهب إلى رد تلك الروايات الأستاذ عبد الغني الدقر من المعاصرين عندما قال في كتابه(الإمام الشافعي فقيه السنة الأكبر) : (ويُظن أن تحديد عمر الشافعي بثلاث عشرة سنة حين رحل إلى مالك غير دقيق مع كثرة الروايات في ذلك..).

ثُمَّ إِلَى (مدِينَـــــةِ الرَّسُـــــولِ)	٢٤	كَـــانَ انْتِقَالُـــهُ بِـــلَا تَطْوِيـــلِ

-٣-

فَـــلَازَمَ الإِمَـــامَ مَالِكًـــا، وَقَـــدْ	٢٥	طَـــالَ القِيَـــامُ عِنْـــدَهُ كَمَـــا وَرَدْ
فَقَـــــرَأَ الـــــمُوَطَّأَ الـــــمُوَطَّا	٢٦	وَضَـــبَطَ الفِقْـــهَ عَلَيْـــهِ ضَـــبْطَا
وَأَخَـــذَ العِلْـــمَ كَـــذَا مِـــنْ غَـــيْرِهِ	٢٧	فِيهَـــا؛ فَكَـــانَ مُكْثُـــهُ مِـــنْ أَجْـــرِهِ

– المرحلة الثانية من حياته وصحبته للإمام مالك في المدينة المنورة –

غادر الإمام الشافعي مكة المكرمة إلى المدينة المنورة للقاء الإمام مالك بن أنس وقراءة الموطأ عليه. ومن المتفق عليه عند علماء السير والتراجم طول صحبته له، والتي امتدت لسنوات، كثر فيها أخذه عنه وملازمته له، خاصة في السنوات الأخيرة قبل وفاة الإمام مالك سنة ١٧٩ هجرية.

من خصاص المدينة في ذلك الوقت

أصبحت المدينة المنورة قبلة العلم والعلماء، منذ أن استوطنها النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم كانت عاصمة الخلافة الراشدة بعد وفاته، وحتى بعد نقل العاصمة إلى الكوفة في عهد سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه – ثم إلى دمشق في عهد بني أمية؛ بقيت المدينة هي محل إقامة جمهور الصحابة، فالأسانيد العالية للأحاديث النبوية واجتهادات فقهاء الصحابة وأقضيتهم، خاصة فقه سيدنا عمر بن الخطاب به كلها تجمعت في المدينة المنورة، ومنها انتشرت إلى سائر بلاد المسلمين، وقد ورث علماء

التابعين الذين استوطنوا المدينة هذا العلم الجم الذي كان فيها، وأبرز أولئك من عرفوا بالفقهاء السبعة وهم:

سعيد بن المسيب (توفي سنة ٩٤هـ) ، وعروة بن الزبير (توفي سنة ٩٤هـ) وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث (توفي سنة ٩٤هـ)، وعبيد الله بن عبد الله ابن عتبة بن مسعود (توفي سنة ٩٨ هـ)، وخارجة بن زيد بن ثابت (توفي سنة ١٠٠هـ)، والقاسم بن محمد بن أبي بكر (توفي سنة ١٠٧هـ)، وسليمان بن يسار (توفي سنة ١٠٧هـ) ، وجاء من بعد هؤلاء جماعة من أكابر علماء تابعي التابعين، الذين استوطنوا المدينة أيضا وورثوا علم سابقيهم، مثل ربيعة بن أبي عبد الرحمن المسمى ربيعة "الرأي"، وهو شيخ الإمام مالك، فأضحى المسجد النبوي جامعة إسلامية كبرى اختصت بفقه حديث النبي عليه الصلاة والسلام و آثار أصحابه الكرام ، مما قلل من حاجة العلماء وطلبة العلم فيها إلى القياس ونحوه من صنوف الاجتهاد بالرأي، فوصفت المدينة المنورة لذلك بأنها مهد مدرسة أهل الحديث، وقد قابلتها الكوفة في أرض العراق التي كانت مهد ما عرف مدرسة أهل الرأي، وعلى هذه المنزلة العلمية الراقية للمدينة المنورة في عصر التابعين وتابعيهم اتحدت كلمة من أرخ للفقه الإسلامي وأدواره.

تلقي الإمام الشافعي عن الإمام مالك

أخرج الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه مناقب الشافعي بسنده إلى الإمام الشافعي يحدث بقصة لقائه الأول مع شيخه مالك بن أنس، تتجلى فيها فوائد طيبة في المكانة الجليلة لكل منهما، لذلك أنقلها بتمامها، يقول الإمام الشافعي: (خرجت من مكة فلزمت هذيلا في البادية، أتعلم كلامها وآخذ بلغتها، وكانت أفصح العرب، فأقمت معهم مدة أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم، فلما أن رجعت إلى مكة جعلت أنشد

الأشعار وأذكر أيام الناس، فمر بي رجل من الزبيريين فقال لي: يا أبا عبد الله، عز على أن لا تكون في العلم والفقه هذه الفصاحة والبلاغة، قلت: من بقي ممن تقصد ؟ فقال: مالك بن أنس سيد المسلمين، فوقع ذلك في قلبي، وعمدت إلى الموطأ فاستعرته من رجل بمكة وحفظته، ثم دخلت على والي مكة فأخذت كتابه إلى والي المدينة وإلى مالك بن أنس، فقدمت المدينة، فبلّغت الكتاب، فلما قرأ والي المدينة الكتاب، قال: يا بني، أن أمشي من جوف المدينة إلى جوف مكة حافيا راجلا أهون علي من المشي إلى باب مالك، فإني لست أري الذل حتى أقف على بابه فقلت: إن رأى الأمير أن يوجه إليه ليحضر، فقال: هيهات، ليت أني إن ركبت أنا ومن معي و أصابنا تراب العقيق يقضي حاجتنا، فواعدته العصر وقصدناه، فتقدم رجل وقرع الباب، فخرجت إلينا جارية سوداء، فقال لها الأمير: قولي لمولاك إنني بالباب، فدخلت فأبطات ثم خرجت، فقالت: إن مولاي يقول: إن كانت مسألة فارفعها إلي في رقعة حتى يخرج إليك الجواب، وإن كان الحديث فقد عرفت يوم المجلس، فانصرف، فقال لها: قولي له: إن معي كتاب والي مكة في مهم، فدخلت ثم خرجت وفي يدها كرسي، فوضعته، فإذا بمالك رجل شيخ طوال قد خرج وعليه المهابة وهو متطيلس، فدفع إليه الوالي الكتاب، فبلغ إلى قوله: إن هذا رجل شريف من أمره وحاله، فتحدثه وتفعل وتصنع. فرمي بالكتاب من يده، وقال: يا سبحان الله، قد صار علم رسول الله يؤخذ بالوسائل!، فرأيت الوالي وهو يهابه أن يكلمه، فتقدمت إليه، فقلت: أصلحك الله، إني رجل مطلبي، من حالي وقصتي، فلما أن سمع كلامي نظر إلي ساعة، وكانت لمالك فراسة، فقال لي: ما اسمك؟ فقلت: محمد، قال: يا محمد، اتق الله واجتنب المعاصي؛ فإنه سيكون لك شأن من الشأن فقلت: نعم وكرامة، فقال: إذا كان غدا تجيء ويجيء من يقرأ لك الموطأ، فقلت: أنا قارئ، أنا أقرأ إن شاء الله تعالى، فلما كان الغد أخذت

الموطأ في يدي وجلست بين يدي شيخي مالك، وأخذت أقرأ عليه الموطأ من حفظي، وكلما نظرت إلى مالك وتهيبت مالكاً -وكان مالك قد أعجب ببلاغتي وقراءتي وحسن إعرابي- فكلما أردت أن أنهي القراءة في الموطأ نظر إليَّ مالك وقال: زد يا فتى زد يا فتى زد يا فتى، حتى أنهيت الموطأ كله في أيام يسيرة.

وهكذا بدأت صحبة الإمام الشافعي للإمام مالك، فقرأ عليه الموطأ وأخذه عنه بغير واسطة بينهما، ولزم درسه فسمع فتاويه و آراءه، ليكمل بذلك ما بدأه عند شيخه مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة آنذاك، كما أخذ عن الإمام مالك الحديث رواية ودراية وما اتصل به من علم الجرح والتعديل و نحوه، وتلقي في حلفته أصول مدرسة أهل الحديث؛ ليتم بهذا التلقي ما بدأه عند شيخه سفيان بن عينة محدث مكة في عصره

ولا شك أن طول صحبة الإمام الشافعي للإمام مالك جعلته الشيخ الأول له، فتأثر به، وأخذ عنه أكثر من أي شيخ آخر، وفي ذلك أخرج الحافظ ابن عبد البر بسنده إلى الإمام الشافعي يقول: (إذا ذكر العلماء فمالك النجم، وما أحد أمن علي من مالك بن أنس). وأخرج أيضا عن الشافعي قوله: (مالك بن أنس معلمي وعنه أخذت العلم)

وكان الإمام الشافعي يجل الإنتاج العلمي للإمام مالك بن أنس عموما وكتابه الموطأ خصوصا، وفي ذلك أخرج ابن أبي حاتم بسنده إلى الإمام الشافعي يقول: (ما في الأرض كتاب من العلم أكثر صوابا عن موطأ مالك)

فائدة: المستقرئ للروايات التي تصف أخذ الإمام الشافعي عن الإمام مالك وصحبته له يتخلص منها أمورا ثلاثة هي:

أ- أن التحصيل العلمي المتخصص في علمي الفقه والحديث للإمام الشافعي إنما كان على يد الإمام مالك بالدرجة الأولى، وما أخذه الإمام الشافعي عن شيوخه قبل التقائه بالإمام مالك أهَّله ليكون تلميذا نابغا في حلقته، التي فيها اينعت مداركه العلمية ونضجت ملكته الفقهية

ب- أن الإمام الشافعي أخذ من الإمام مالك ولازمه في آخر حياته، أي عندما كان إماما في الفقه والحديث وله مذهب استقل به، فأخذ عنه آخر أقواله التي مات عليها في سائر مسائل العلم وأبواب الفقه من غير واسطة بينهما، في مقابل أخذه علم الإمام أبي حنيفة النعمان عن طريق تلميذه محمد بن الحسن الشيباني كما سيأتي بيانه

ج- أن الإمام الشافعي خلال دراسته في حلقة الإمام مالك كان يعد من تلاميذه أي أنه كان فقيها مالكيا على المعنى الاصطلاحي الذي ظهر بعد ذلك، فكان يفتي بآراء الإمام مالك وأقواله، ولم تظهر له آنذاك شخصية علمية مستقلة أو اختيارات خاصة به، فالذين ترجموا للإمام الشافعي لم ينقلوا أية روايات تدل على اختيارات له في هذه المرحلة، وذلك فيما يبدو لي لأنه مازال في طور التلقي والبناء لملكته الفقهية.[١٦]

ومن كل ما سبق يتضح جليا أن صحبة الإمام الشافعي للإمام مالك وتلقيه عنه كانت المحطة الرابعة والأهم في حياته العلمية

[١٦] أما كتاب: اختلاف مالك والشافعي، فقد صنفه الإمام الشافعي في مصر بعد أكثر من عشرين عاما مضت على صحبته للإمام مالك، وكان يومها قد بلغ مبلغا عظيما في الاجتهاد، ورسوخ القدم في الفقه كما سيأتي بيانه

هذا وقد أخذ الإمام الشافعي خلال إقامته في المدينة المنورة عن سائر الفقهاء والمحدثين فيها غير الإمام مالك، وانتفع منهم جميعا، ومن ذلك أن الحافظ أبا بكر البيهقي عد ثلاثة عشر شيخا للإمام الشافعي في المدينة غير مالك بن أنس.

وَبَعْدَ مَوْتِ مَالِكٍ؛ وَقَدْ رَجَعْ	٢٨	لِمَكَّةٍ: غَادَرَهَا كَمَا وَقَعْ
إِلَى بِلَادِ (**الْيَمَنِ**) السَّعِيدِ	٢٩	فَأَخَذَ العِلْمَ عَنِ العَدِيدِ
مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِهَا، وَقَدْ وَلِي	٣٠	وِلَايَةً فِيهَا بِحَمْدٍ تَنْجَلِي
لَكِنَّمَا حُسَّادُهُ كَادُوهُ	٣١	فِيهَا بِسَعْيِهِمْ فَأَخْرَجُوهُ
مُتَّهَمًا بِالسَّعْيِ فِي الخُرُوجِ	٣٢	عَلَى الخِلَافِةِ مَعَ التَّهْيِيجِ
فَرَفَعُوا إِلَى العِرَاقِ أَمْرَهْ	٣٣	وَشَوَّهُوا عِنْدَ الأَمِيرِ ذِكْرَهْ

– المرحلة الثالثة: من حياته ورحلته إلى اليمن للعمل فيها –

شرع الناظم –وفقه الله – يتكلم عن المرحلة التي تلت وفاة شيخه الإمام مالك –رحمه الله – ورحلته إلى اليمن السعيد

فبعد وفاة شيخيه الإمام مالك بن أنس في المدينة المنورة سنة ١٧٩هـ، ومسلم بن خالد الزنجي في مكة المكرمة في العام نفسه على أصح الروايات، وكان الإمام الشافعي قد حصل من علوم الشريعة قسطا وافرا حتى ذلك الحين؛ رأى أن يتجه إلى العمل ليحصل شيئا من الدنيا يستعين به على طلب العلم وعلى إصلاح حاله وحال أهله، وقدر الله تعالى أن يكون والي الدولة العباسية على اليمن في زيارة إلى مكة المكرمة في الوقت الذي غادر فيه الإمام الشافعي المدينة إلى مكة بعد وفاة : شيخه الإمام مالك سنة ١٧٩هـ، فتوسط بعض القرشيين له وكلموا الوالي ليصحبه معه إلى اليمن فيوليه عملا يتكسب منه، فرحل الإمام الشافعي إلى اليمن مع واليها، وله من العمر تسع

وعشرون سنة على ما يظهر من مجموع الروايات؛ ومنها ما أخرجه الحافظ أبو بكر البيهقي بسنده إلى الإمام الشافعي يقول في رواية طويلة: (... ثم أقمت بالمدينة إلى أن توفي مالك بن أنس رضي الله عنه[١٧]

فائدة: المستقرئ للروايات التي تصف رحلة الإمام الشافعي إلى اليمن – على كثرتها – تتجلى له الأمور الثلاثة التالية:

١– أنه عمل في أول الأمر عملا إداريا متواضعا وقد أتقنه وأجاد فيه؛ وفي ذلك يقول الإمام النووي: (.. وولي باليمن أي الشافعي – واشتهر من حسن سيرته وحمله الناس على السنة والطرائق الجميلة أشياء كثيرة معروفة...).

٢– أن إحسانه في العمل الأول جعله يتولى ولاية عامة في مدينة نجران، والتي كانت تابعة لولاية اليمن آنذاك، والذي يظهر أن هذه الولاية إن لم تكن القضاء في نجران فهي ذات صلة به.

٣– أن الإمام الشافعي كان في العملين متقنا لهما ومستقيما عادلا، بعيدا عن مجاراة أهل الأهواء؛ فكان حاله ذاك سببا لحمل حساده وأصحاب المصالح التي

---

[١٧] وهذا ما ارتضاه كل من العلامة محمد أبو زهرة والأستاذ عبد الغني الدقر في ترجمتهما المفيدة للإمام الشافعي عند تحقيق هذه المسألة، وعليه فقد جانب الشيخ محمد زاهد الكوثري – رحمه الله – الصواب عندما قال في تحقيقه لكتاب الانتقاء للحافظ ابن عبد البر: (... خروج الشافعي إلى اليمن وهو ابن سبع عشرة أو نحوها كما ورد بطرق، وبقي هناك إلى أن حُمل إلى العراق، وكان يقدم مكة للحج بين حين وآخر أثناء إقامته باليمن، وكانت ملازمته لمالك في الأوائل..). إذ الروايات التي ذكرت زيارات مبكرة للإمام الشافعي إلى اليمن إنما حملها على الجولات التي كان يقوم بها خلال إقامته في المدينة المنورة سواء إلى قبائل العرب أو إلى مكة أو حتى إلى اليمن، وقد سبقت الإشارة إلى هذا التوجيه لمجموع الروايات، وهذا لا يعني استمرار وجود الإمام الشافعي في اليمن منذ أن كان في السابعة عشرة من عمره سنة ١٦٧ه. وحتى سنة ١٨٤ هجرية، عندما حمل إلى بغداد كما سيأتي، أي أنه مكث في اليمن سبعة عشر عاما، كما قرر الشيخ محمد زاهد الكوثري رحمه الله فهذا بعيد جدا.

تتعارض مع عدله واستقامته بأن يكيدوا له عند الخليفة هارون الرشيد باتهامه زورا وبهتانا بأنه يتجهز مع بعض العلويين للخروج على الخلافة العباسية.

ولعل من أجمع الروايات وأوثقها في وصف رحلة الإمام الشافعي إلى اليمن ما أخرجه الحافظ أبو بكر البيهقي بسنده إلى الإمام الشافعي يقول: (...ثم قدم وال على اليمن فكلمه بعض القرشيين أن أصحبه، ولم يكن عند أمي ما تعطيني أتحمَّل به، فرهنت دارا بستة عشر دينارا، وأعطتني فتحملت بها معه، فلما قدمنا اليمن استعملني على عمل، فحمدت فيه، فزاد في عملي، وقدم العمال مكة في رجب فأثنوا علي، وطار لي بذلك ذكر... ثم قدمت بعد ذلك نجران وبها بنو الحارث بن عبد المدان وموالي ثقيف، وكان الوالي إذا أتاهم صانعوه، فقدمت فأرادوني على نحو ذلك، فلم يجدوا عندي. وتظلم عندي ناس كثير، فجمعتهم وقلت: اجتمعوا على سبعة رجال عدول منكم، من عدلوه كان عدلا، ومن جرحوه كان مجروحا فاجتمعوا على سبعة منهم، فجلست وقلت للخصوم: تقدموا، وأجلست السبعة حولي، فإذا شهد شاهد التفت إلى السبعة، فقلت: ما تقولون في شهادته؟ فإن عدلوه كان عدلا، وإن جرحوه قلت: زدني شهودا، فلم أزل أفعل حتى أتيت على جميع من تظلم عندي، فلما صححت وضعت أحكم وأسجل فنظروا إلى حكم جار، فقالوا: هذه الضياع التي تحكم علينا فيها ليست لنا، إنما هي بأيدينا لمنصور بن المهدي، فقلت للكاتب: اكتب: أقر فلان بن فلان الذي وقع عليه حكمي في هذا الكتاب أن الضيعة التي حكمت عليه فيها ليست له، إنما هي لمنصور بن المهدى، ومنصور بن المهدي قائم على حجته متي قام. قال: فخرجوا إلى مكة، وعملوا في أمري حتى رفعت إلى العراق...).

وقد أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة مختصرة بسنده إلى الإمام الشافعي ايضا.

ومن الجدير بالذكر عقب هذه الرواية توضيح الأمرين التاليين:

١- أن إقامة الإمام الشافعي في نجران أفادته في الاطلاع على أمور ذات صلة ببعض مسائل الفقه المتعلقة بأحكام أهل الكتاب، مثل مقدار الجزية المفروضة عليهم ونحو ذلك، وهذا بالنظر إلى وجود بعض نصارى العرب في منطقة نجران قبل الإسلام وبعده، وعلى سبيل المثال لا الحصر قال الإمام الشافعي في كتاب الجزية من كتابه الأم: (وأَخذَ –أي: النبي عليه الصلاة والسلام – الجزية من أهل نجران؛ فيها كسوة، ولا أدري ما غاية ما أخذ منهم، وقد سمعت بعض أهل العلم من المسلمين ومن أهل الذمة من أهل نجران يذكر أن قيمة ما أخذ من كل واحد أكثر من دينار..)

وهذه الرواية مع دلالتها على قوة حفظ الإمام الشافعي حتي بقي ذاكرة المثل هذه الأمور منذ أن كان في نجران حتى دونها بعد عشرين عاما في كتابه الأم الذي كتبه في مصر، تدل أيضا على أنه كان حريصا على الانتفاع بكل ما يراه ويسمعه من العلماء ومن غيرهم من العامة، بل ومن غير المسلمين من أهل الذمة، في إغناء فقهه وزيادة علمه بمسائل الشريعة على تنوعها فرضي الله عنه من إمام.[١٨]

٢- أن الجو العام للدولة العباسية في عصر الإمام الشافعي عموما، وتلك السنوات التي قضاها في اليمن خصوصا، كان بيئة مناسبة ليصبح اتهام أي شخص أو جماعة بالسعي للخروج على الخلافة سببا كافيا لبطش الدولة بهم وربما قتلهم لمجرد الشبهة، فكان خلفاء بني العباس يحكمون بسياسة القبضة الحديدية، وليس خروج محمد النفس

[١٨] وفي بيان هذه الفائدة قال العلامة محمد أبو زهرة رحمه الله : (تجعله – أي مخالطة المجتمع – يحس بإحساس الناس، ويندمج في أوساطهم ويتعرف خبيئة نفوسهم ودخائل مجتمعهم ويستشعر بمشاعرهم، وذلك أمر ضروري لكل من يتصدى لعمل يتعلق بالمجتمع وما يتصل به في معاملاته وتنظيم أحواله وتوثيق علائقه، وإن تفسير الشريعة واستخراج حقائقها والكشف عن موازينها ومقاييسها يتقاضى من الباحث ذلك).

الزكية الحسني العلوي على الخليفة المنصور ببعيد كما سبق بيانه، وكذا الخليفة هارون الرشيد كان قد أمر بحبس موسى الكاظم بن جعفر الصادق الحسيني العلوي، لشكه برغبته في الخروج عليه والدعوة بالخلافة إلى العلويين، بل لقد بطش الرشيد بالبرامكة وكانوا من أقرب الناس إليه، فقتل منهم خلقا كثيرا في مقدمتهم وزيره جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، سنة ١٨٧هـ، لأنه قد ظهر منهم ما يشكك في ولائهم له، وعليه فقد كان اتهام الإمام الشافعي وهو من بني المطلب أبناء عمومة العلويين بالسعي للخروج على الخلافة أمرا سهلا على حساده من أهل الأهواء، ولا يحتاج إلى كبير جهد لإثباته في ذلك الزمان.

هذا ولم تنقطع صلة الإمام الشافعي بالعلماء خلال عمله في اليمن بل أخذ العلم عن بعضهم إلى جانب إتقانه لعمله، ولعل من أبرزهم: هشام بن يوسف[١٩]

حمل الإمام الشافعي إلى بغداد ومحنته عند الخليفة

اختلفت الروايات التي تسرد تفاصيل المحنة التي تعرض لها الإمام الشافعي وملابسات حمله إلى الخليفة في بغداد، ووقع فيها اضطراب كثير، ويتبين ذلك من استقرائها، وما صرح به أحد الرواة وهو الزبير بن أحمد بن سليمان، فيما أخرجه الحافظ أبو بكر البيهقي بسنده إليه يقول: (سمعت جماعة من أصحابنا يقصون هذا الخبر من أمر الشافعي –يعني أمر المحنة – ويزيد فيه بعضهم على بعض ويحكي فيه بعضهم غير ما يحكي بعض، وسمعت أشياء منهم على غير اقتصاص من الخبر، إلا

[١٩] هو أبو عبد الرحمن هشام بن يوسف الصنعاني، قاضي صنعاء اليمن وفقيهها، الإمام الثبت روى عن سفيان الثوري وغيره، ليس بالمكثر في الرواية لكنه متقن، توفي سنة ١٩٧ هجرية، ذكره من شيوخ الإمام الشافعي الحافظ البيهقي والفخر الرازي، ونص على أنه من شيوخه اليمنيين وكذا الحافظ ابن حجر.

أنها تآلفت مع الخبر فجمعت ذلك ولم أخرج من معانيهم في كل ذلك) ، ثم ذكر الزبير بن أحمد الرواية التي ارتضاها

وعلى ما في هذه الروايات من اختلاف كبير في بعض التفاصيل إلى درجة التناقض البين أحيانا، إلا أن الذي يعنينا من محنة الإمام الشافعي الأمور الثلاثة التالية، والتي أثبتها بعد استقراء مجموع الروايات – على ما في بعضها من وهنٍ ظاهر – مستعينا بالتعليقات المفيدة للعلماء عليها:

١– أن اتهام الإمام الشافعي بالخروج على الخلافة العباسية كان السبب وراء مغادرته لليمن وتركه لعمله فيها، ورحلته الجبرية إلى بغداد، والتي يظهر أنه لم يكن قد زارها قبل سنة ١٨٤ هجرية.

٢– أن الإمام الشافعي نجا من عقوبة الخليفة هارون الرشيد الذي عفا عنه، ووصله بعدها بخير، وكان لمحمد بن الحسن الشيباني دور بارز في ذلك، فهو صاحب المكانة المرموقة عند خلفاء بني العباس، ومنهم هارون الرشيد، ويعتبر الشخصية العلمية الأولى في عاصمة الخلافة بغداد، بعد وفاة صاحبه أبي يوسف [٢٠]سنة ١٨٢ هجرية، وكان يعرف الإمام الشافعي ولقيه في الحجاز وسمع سيرته الحسنة، وفي بيان ذلك أخرج

---

[٢٠] هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري ثم الكوفي، الإمام أبو يوسف القاضي صاحب أبي حنيفة النعمان وتلميذه، وجد جده كان صحابيا، ولد بالكوفة سنة ١١٣ هجرية، وأخذ الحديث وكان حافظ، ثقة، ثم لزم أبا حنيفة فغلب عليه الراي، تولى القضاء ببغداد لثلاثة من الخلفاء هم الهادي والمهدي والرشيد، وكان الرشيد يكرمه ويجعله، وأسند إليه تعيين القضاة في المشرق والمغرب، وهو أول من دعي بقاضي القضاة، وقد سار بالقضاء سيرة مرضية حسنة، وهو أول من وضع الكتب على مذهب أبي حنيفة، وعمل على نشر مذهبه في سائر بلاد المسلمين آنذاك، وخالف أستاذه وإمامه أبا حنيفة في كثير من المسائل وأقام الحجة على رأيه، واخذ عنه الكثير من العلماء منهم محمد بن الحسن الشيباني، توفي في بغداد سنة ١٨٢ هجرية، راجع في ترجمته: أخبار ابي حنيفة وأصحابه، الصيمري، ص

٩٧ – ١٠٨، والبداية والنهاية، ابن كثير، المجلد الخامس، ج ١٠، ص ١٩٣ ١٩٩٠، وتهذيب سير أعلام النبلاء، الحافظ الذهبي، ج ١، ص ٣٠٠، رقم الترجمة ١٣٢٨

الحافظ ابن عبد البر بسنده إلى الإمام الشافعي يقول في سرد قصة محنته: (... ثم عطف -أي الخليفة هارون الرشيد - على محمد بن الحسن فقال: يا محمد، ما يقول هذا هو كما يقوله؟ قال: بلى، وله محل من العلم كبير، وليس الذي رفع عليه من شأنه، قال: فخذه إليك حتى أنظر في أمره، فأخذني محمد، وكان سبب خلاصي).

٣- أن الإمام الشافعي استوطن بغداد بعد عفو الخليفة عنه وانتهاء محنته، ولم يرجع إلى اليمن أو حتى إلى الحجاز بعد ذلك مباشرة، فقد استهوته مجالس العلم في عاصمة الخلافة التي كانت زهرة المدائن الإسلامية آنذاك، ففيها المكتبات والعلماء والأدباء، وسوق العلم فيها رائجة، فتاقت نفسه المحبة للعلم وصحبة العلماء إلى أخذ فقه مدرسة أهل الرأي وأصولها، والتي كان معظم أعلامها قد استوطنوا في العراق عامة وفي بغداد والكوفة خاصة...

أخذ الإمام الشافعي إلى الخليفة في بغداد سنة ١٨٤ هجرية متهما بالسعي للخروج مع العلويين على الخلافة العباسية، وقد رويت الكثير من الروايات المسندة التي تبين تفاصيل دخوله على الخليفة هارون الرشيد ثم نجاته من العقوبة.

فَسَارَ مِنهَا قَاصِدًا (**بَغْدَادَا**)	٣٤	ثُمَّ التَقَى رَشِيدَهَا؛ فَسَادَا
إِذْ عِنْدَهُ قَدْ شَفَعَ الشَّيْبَانِي	٣٥	لِلشَّافِعِيِّ العَالِمِ الرَّبَّانِي
وَبَعْدَ ذَا: لَازَمَهُ كَالغَرْسِ	٣٦	وَعَدَّهُ أُستَاذَهُ فِي الدَّرْسِ
بَعْدَ الإِمَامِ مَالِكٍ، وَقَدْ أَخَذْ	٣٧	عَنْ غَيْرِهِ عُلُومَهُمْ مِمَّا يَلَذْ
أَشْهَرُهُمْ: وَكِيعُنَا وَالثَّقَفِي	٣٨	وابنُ عُلَيَّةَ الإمامُ المُقْتَفِي

- تفاصيل محنة الشافعي في بغداد -

كان الشافعي من الذين أخذوا عن محمد بن الحسن، وكان محمد بن الحسن قد التقى الإمام الشافعي في الحجاز، وعرف مكانته وحسن فقهه وأدبه، ويبدو أن ذلك كان خلال أخذ محمد بن الحسن عن الإمام مالك بن أنس في المدينة المنورة، وفي ذلك أخرج ابن أبي حاتم والحافظ ابن عبد البر واللفظ له بسنديهما إلى الإمام الشافعي يقول: (قال محمد بن الحسن: أقمت عند مالك بن أنس ثلاث سنين وكسرا، وكان يقول (أي محمد بن الحسن): إنه سمع منه لفظا أكثر من سبع مئة حديث، وكان إذا حدثهم أي تلاميذ محمد بن الحسن – عن مالك امتلأ منزله، وكثر الناس عليه حتى يضيق بهم الموضع...)، وكانت هذه المعرفة السابقة لمحمد بن الحسن بالإمام الشافعي السبب في تدخله لدى الخليفة هارون الرشيد ليعفو عنه كما سبق بيانه.

هذا ولازم الإمام الشافعي في قدمته هذه إلى بغداد محمد بن الحسن، وسمع منه وأخذ عنه فقه الإمام أبي حنيفة النعمان وأصوله، فقد أخرج ابن أبي حاتم والحافظ ابن عبد البر بسندهما إلى الإمام الشافعي يقول: (حملت عن محمد بن الحسن وقر بعير ليس عليه إلا سماعي منه)،

وقد كان تأثر الإمام الشافعي بمحمد بن الحسن وأخذه عنه كبيرا، وليس أدل على ذلك مما أخرجه القاضي حسين بن علي الصيمري بسنده إلى الإمام الشافعي يقول: (إني لأعرف الأستاذية عليَّ لمالك ثم لمحمد بن الحسن.)

شيوخ الإمام الشافعي العراقيين

أخذ الإمام الشافعي خلال إقامته في بغداد عن عدد من أكابر العلماء، بالإضافة لتلقيه عن محمد بن الحسن، ولعل من أبرز أولئك العلماء:

١- وكيع بن الجراح:

هو وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي الكوفي، أبو سفيان، الإمام في الحديث من تابعي التابعين، كان محدث العراق في عصره، ولد بالكوفة سنة ١٢٩ هجرية وحفظ الحديث واشتهر به وكان يفتي بقول الإمام أبي حنيفة، عرف بالزهد والورع ومن كتبه تفسير القرآن، والسنن، والمعرفة والتاريخ، والمصنف، وكان ثقة خرج أحاديثه أصحاب الكتب الستة، توفي سنة ١٩٧ هجرية في طريق عودته من مكة منصرفا من الحج.

وقد أخذ عنه الإمام الشافعي وروى عنه، واشتهر من شعره قوله في وكيع بن الجراح:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصي

٢- عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي:

ترجم له الحافظ الذهبي قائلا: (... هو الإمام الأنبل الحافظ الحجة، أبو محمد عبد الوهاب ابن عبد المجيد... جد جده صاحب النبي صلى الله عليه وسلم الحكم بن أبي العاص... ولد سنة عشر ومئة)، وقد ذكره من شيوخ الإمام الشافعي العراقيين كل من الحافظ أبي بكر البيهقي والفخر الرازي، وترجم له الحافظ ابن حجر العسقلاني في لسان الميزان قائلا عنه: (... ثقة مشهور... الثقفي، لا ينكر له إذا انفرد بحديث بل وبعشرة... مات سنة ١٩٤ هجرية، وله أربع وثمانون سنة)، وترجم له أيضا في تهذيب التهذيب فقال: (روى عنه الشافعي وأحمد وهو ثقة).

٣- إسماعيل بن إبراهيم البصري:

ترجم له الحافظ شمس الدين الذهبي قائلا: (إسماعيل بن إبراهيم بن مقسم الإمام العلامة الحافظ الثبت... الكوفي الأصل المشهور بابن علية وهي أمه، ولد سنة عشر ومئة للهجرة... وكان فقيها إماما مفتيا من أئمة الحديث... توفي سنة ثلاث وتسعين

ومئة للهجرة وحديثه في كتب الإسلام كلها..) وذكره من شيوخ الإمام الشافعي العراقيين كل من الحافظ أبي بكر البيهقي والفخر الرازي والحافظ ابن حجر .

فائدة: إن الله سبحانه كما اصطفى الأنبياء ممن شاء من عباده، قال تعالى: (الله أعلم حيث يجعل رسالته) [الأنعام: ١٢٤]، فإنه سبحانه يصطفي العلماء لوراثة الأنبياء ممن شاء من عباده أيضا، فييسر لهم بل طلب العلم، ويوفقهم برعايته ورحمته إلى ذلك؛ فهذا الإمام الشافعي أراد حساده به شرا، فساقه الله تعالى إلى مجالس الفقه في مساجد بغداد، ليأخذ عن أكابر علمائها آنذاك، فذهب حساده ومن اتهموه زورة وعدوانا، ولم يدر بهم أحد، حتى إنني لم أستطع أن أترجم لأحد منهم، وبقي فقه الإمام الشافعي، فما تطلع الشمس يوما على الأرض إلا وينتفع من علمه، فرضي الله عنه من إمام.

متى غادر الشافعي بغداد؟

لا توجد رواية صريحة تحدد زمن مغادرة الإمام الشافعي لبغداد في هذه القدمة الأولى عليها، والتي مما لا شك فيه أنها امتدت لسنوات بالنظر إلى حجم العلم الذي أخذه عن علمائها، وفي مقدمتهم محمد بن الحسن الشيباني، والذي وصفه ب(حمل بعير)[٢١]

من كل ما سبق يتضح جليا أن رحلة الإمام الشافعي الأولى إلى بغداد وصحبته فيها محمد بن الحسن كانت المحطة الخامسة والأخيرة في تطور شخصيته العلمية ونضج ملكته الفقهية.

---

[٢١] وقد ذهب العلامة محمد أبو زهرة إلى أنه غادر بغداد سنة ١٨٦ هجرية، أي أنه مكث فيها سنتين، و الذي حققه الأستاذ عبد الغني الدقر أن مغادرة الإمام الشافعي لبغداد كانت سنة ١٨٩ هجرية أي أنه مكث فيها خمس سنوات، ففي سنة ١٨٩ هجرية توفي محمد بن الحسن الشيباني رحمه الله وهو في طريقه إلى خراسان بصحبة الخليفة هارون الرشيد، على ما سبق في ترجمته، وما كان للإمام الشافعي أن يغادر بغداد وفيها محمد بن الحسن، وقد أفاد منه ما أفاده، سواء في أخذه عنه علما جما، أو في مناظرته له ولأصحابه، على غرار ملازمته للإمام مالك بن أنس في المدينة حتى توفي سنة ١٧٩ هجرية.

وَبَعْـدَ مَـوْتِ شَـيْخِهِ الشَّـيْبَانِي	٣٩	غَادَرَهَـا بِالهَـمِّ وَالأَحْـزَانِ
مُتَّجِهًـا (لِـمَكَّةَ) الجَلِيلَـةْ	٤٠	حَيْـثُ أَقَـامَ مُـدَّةً طَوِيلَـةْ
وَعَقَـدَ المَجَـالِسَ العِلْمِيَّـةْ	٤١	وانْتَشَـرَتْ أَقْوالُـهُ الفِقْهِيَّـةْ

فَظَهَـرَتْ شَخْصِـيَّةُ الإِمَـامِ	٤٢	بِفِقْهِـهِ الجَدِيـدِ لِـلأَنَامِ
يَجْمَـعُ بَـيْنَ مَـذْهَبِ المَدِينَـةِ	٤٣	وَمَـذْهَبِ العِـرَاقِ دُونَ مِرْيَـةِ

– المرحلة الخامسة من حياته في مكة المكرمة وظهور مذهبه –

غادر الإمام الشافعي بغداد سنة ١٨٩ هجرية، بعد وفاة شيخه محمد بن الحسن الشيباني متوجها إلى موطنه مكة المكرمة، ليطول مكثه فيها هذه المرة، حيث اتخذ له حلقة للتدريس بفناء زمزم قبالة ميزاب الكعبة المشرفة في المسجد الحرام يعلم الفقه ويفتي الناس.

وفي هذه الحلقة بدأ يظهر فقه الإمام الشافعي مستقلا عن غيره، فهو ينشئ الفتوى ويعرض المسائل من غير إحالة على فقه شيخه الإمام مالك وموطنه، وإن لم يكن من حيث النتيجة مخالفة له في أكثر الأحكام.

والذي يظهر أن اختلاف الإمام الشافعي مع شيخه الإمام مالك وأصحاب أبي حنيفة الذي بدا في الظهور واضحا في هذه الحلقة؛ إنما هو **اختلاف في الأصول**

وطريقة الاستدلال أكثر منه اختلاف في النتيجة والحكم، خاصة عند وجود أكثر من دليل على الحكم الفقهي، فالحافظ ابن كثير قد أحصى في كتابه مناقب الشافعي مئتين وثمانين مسألة فقهية انفرد فيها الإمام الشافعي عن الأئمة الثلاثة أبي حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل، وبغض النظر عن دقة هذا الرقم وتحقيق وجود الاختلاف في هذه المسائل فإنه لا يعتبر رقما كبيرا بالنظر إلى آلاف مسائل الفقه في سائر الأبواب، مما يدل على أن الاختلاف في التقعيد الأصولي وطريقة الاستدلال وتوجيه النصوص هو الفارق الأهم – والذي بدأ يظهر في هذه المرحلة – بين الإمام الشافعي وشيوخه، وهو ما يسمى بالاجتهاد المطلق[٢٢]

وكما كانت الملكة الفقهية للإمام الشافعي متطورة في نضجها ما بين مسلم بن خالد الزنجي والإمام مالك بن أنس ثم محمد بن الحسن الشيباني، فكذلك كان اجتهاده المطلق متدرجا، ولم يوجد متكاملا تاما دفعة واحدة في يوم وليلة؛ فقد عرف فقه الإمام الشافعي واجتهاده الذي ظهر في هذه المرحلة بالمذهب القديم، وذلك بالمقابلة مع فقهه في مصر الذي دونه ومات عليه وعرف بالمذهب الجديد، وسيأتي تفصيل القول فيهما إن شاء الله.

ولعل من أبرز من اتصل بالإمام الشافعي في إقامته هذه في مكة المكرمة وأفاد منه كل من الإمامين أحمد بن حنبل و إسحاق بن راهويه، وإلى هذا يشير الناظم في قوله:

---

[٢٢] وقد عرف علماء الأصول المجتهد المطلق بأنه: الذي يستقل باجتهاده في الأصول والفروع والاستنباط من الأدلة، وإن وافق في قاعدته قاعدة غيره، أو وافق فرعه فرع غيره فإنما هو من موافقة الاجتهاد للاجتهاد لا من قبيل التقليد.

أَجَلُّ مَنْ أَخَذَ عَنْهُ فِي الجَلِي	٤٤	فِيهَا: الإِمَامُ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلِ
كَذَاكَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ	٤٥	كَانَا مَعَ الإِمَامِ سَاعِدَيْهِ

– الإمام أحمد بن حنبل وتلقيه عن الإمام الشافعي –

هو الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال، مؤسس المذهب الحنبلي وأحد الأئمة الأعلام الأربعة في الفقه، أصله من مدينة مرو ولد ببغداد سنة ١٦٤هـ، ونشأ بها منكبا على طلب العلم، ورحل لتحصيله وسماع الحديث إلى معظم البلاد الإسلامية آنذاك، صنف كتابه (المسند) وفيه ثلاثون ألف حديث، وكان الإمام أحمد إمام أهل السنة امتحن بفتنة القول بخلق القرآن وضرب وعذب وسجن لإكراهه على ذلك دون جدوى، فكان – رضي الله عنه – مضرب المثل في الثبات على الحق وفي الزهد والعلم والورع والالتزام بآثار السلف، وقد أخذ عنه الحديث أكابر حفاظ المحدثين في عصره، منهم محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج النيسابوري، توفي ببغداد سنة ٢٤١ هـ.

ومن الروايات المفيدة التي تعرض استفادة الإمام أحمد بن حنبل من الإمام الشافعي ما أخرجه ابن أبي حاتم بسنده إلى الحميدي يقول: (كان أحمد بن حنبل قد أقام عندنا بمكة على سفيان بن عيينة، فقال لي ذات يوم: ها هنا رجل من قريش له بيان ومعرفة، فقلت له: فمن هو؟ قال: محمد بن إدريس الشافعي، وكان أحمد بن حنبل قد جالسه بالعراق، فلم يزل بي حتي اجترني إليه، وكان الشافعي قبالة الميزاب فجلسنا إليه ودارت مسائل... وكان كلامه وقع في قلبي، فجالسته فغلبتهم عليه، فلم نزل نقدم مجلس الشافعي حتى كان بقرب مجلس سفيان

وأخرج ابن أبي حاتم أيضا بسنده إلى الفضل بن إسحاق البزاز البغدادي يقول: (حججت مع أحمد بن حنبل ونزلت في مكان واحد معه (يعني بمكة)، وخرج أبو عبد الله (يعني أحمد بن حنبل) باكرا وخرجت أنا بعده، فلما صليت الصبح درت المسجد فجئت إلى مجلس سفيان بن عيينة، وكنت أدور مجلسا مجلسا طلبا لأبي عبد الله، حتى وجدت أحمد بن حنبل عند شاب أعرابي وعليه ثياب مصبوغة وعلى رأسه جُمَّة، فزاحمته حتى قعدت عند أحمد بن حنبل، فقلت: يا أبا عبد الله تركت ابن عيينة وعنده... (وذكر جماعة من كبار التابعين) ما الله به عليم؟ فقال لي: اسكت فإن فاتك حديث بعلو تجده بنزول لا يضرك في دينك ولا في عقلك، وإن فاتك أمر هذا الفتى أخاف أن لا تجده إلى يوم القيامة، ما رأيت أحدا أفقه في كتاب الله من هذا الفتى القرشي، قلت من هذا؟ قال: محمد بن إدريس الشافعي)

ومن الروايتين السابقتين وغيرهما كثير، يظهر أن شخصية الإمام الشافعي – التي بدأت تتألق في حلقته في المسجد الحرام – كانت ملفتة للأنظار بجمعه بين فقه مدرستي الرأي والحديث؛ فلم يكن يكتفي بسرد روايات الحديث وشواهده ومتابعاته على طريقة المحدثين، ولم يكن يستطرد في الأقيسة وإعمال الرأي مع وفرة النصوص والآثار على طريقة أصحاب أبي حنيفة، بل كان يعرض آيات القرآن والأحاديث النبوية وآثار الصحابة، مع حسن فقهه لها وتفسيره لكل ما اشتملت عليه من أحكام، بطريقة لم يسبق إليها جعلت الإمام أحمد بن حنبل يجله ويلازمه، وكان – رحمه الله – عليما بأقدار الرجال، وفي ذلك أخرج الحافظ ابن عبد البر بسنده إلى عبد الله بن أحمد بن حنبل يقول: (قلت لأبي: يا أبت أي رجل كان الشافعي؟ فإني أسمعك تكثر الدعاء له؟ فقال: يا بني، كان الشافعي رحمه الله : كالشمس للدنيا وكالعافية للناس، فانظر هل لهذين من عوض أو خلف).

وقد عرض الإمام النووي والحافظ ابن حجر العسقلاني الكثير من الروايات عن الإمام أحمد التي تظهر شدة احترامه وتوقيره للإمام الشافعي وفقهه.

والإمام أحمد يعتبر من تلاميذ الإمام الشافعي ممن نقلوا مذهبه القديم، رغم أنه استقل بمذهبه فيما بعد على غرار ما حصل من تلقي الإمام الشافعي عن الإمام مالك، وإن كانت صحبة الشافعي لمالك أطول زمنا وأكثر أثرا في شخصيته العلمية مما كان بينه وبين الإمام أحمد – رضي الله عنهم– أجمعين.

– الإمام إسحاق بن راهويه واتصاله بالإمام الشافعي –

هو الإمام أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن مخلد المشهور بابن راهويه، عالم خراسان، وصفه الحافظ الذهبي بقوله: (هو الإمام الكبير شيخ المشرق سيد الحفاظ أبو يعقوب، مولده سنة ١٦١ هجرية في مرو، وطاف البلاد في جمع الحديث، وهو شيخ الإمامين محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج النيسابوري، وقد جمع بين الفقه والحديث وإن كان في الأخير أكثر اشتغالا، وصحب الإمام أحمد، وأخذ عن الإمام الشافعي وجمع كتبه، توفي في نيسابور بسنة ٢٣٨ هجرية.

ومن الروايات المفيدة التي تعرض اتصاله بالإمام الشافعي في هذه المرحلة ما أخرجه الحافظ ابن عبد البر بسنده إليه يقول: لقيني أحمد بن حنبل بمكة فقال لي: تعال حتى أريك رجلا لم تر عيناك مثله، فأراني الشافعي.

وأخرج ابن أبي حاتم بسنده إلى إسحاق بن راهويه يقول: (كنا بمكة والشافعي بها وأحمد ابن حنبل بها، فقال لي أحمد بن حنبل: يا أبا يعقوب جالس هذا الرجل – يعني الشافعي– قلت: ما أصنع به وسنه قريب من سننا؟ أترك ابن عيينة والمقبري؟! فقال: ويحك إن ذاك يفوت وذا لا يفوت، فجالسته).

وقد تأثر إسحاق بن راهويه بفقه الإمام الشافعي وطريقته حتى قال فيما : أخرجه ابن أبي حاتم بسنده إليه: (ما تكلم أحد بالرأي (وذكر الثوري والأوزاعي : ومالك وأبا حنيفة) إلا والشافعي أكثر اتباعا وأقل خطأ منه.)

إلا أن تأثر ابن راهويه بالإمام الشافعي كان أدنى مما كان للإمام أحمد بن حنبل، وهذا ما يدل عليه مجموع الروايات في ذلك، فقد جرت بينه وبين الإمام الشافعي مناظرات في عدة مسائل، ويبدو أن صحبته للإمام الشافعي كانت من القصر بحيث لم يستجلِ ابن راهويه معها عظيم فقه الإمام الشافعي ومكانته العلمية الرفيعة، وهو ما أدركه بعدما قرأ كتبه المصرية التي دون فيها مذهبه الجديد، وفي ذلك نقل الحافظ ابن حجر رواية مسندة إلى الإمام داود بن علي الظاهري يقول له إسحاق بن راهويه فيها: (... فلما فارقناه (يعني الإمام الشافعي) أعلمني جماعة من أهل الفهم بالقرآن أنه كان أعلم الناس في زمانه بمعاني القرآن، وأنه قد أوتي فيه فهما، فلو كنت عرفته للزمته. وقال داود: ورأيته يتأسف على ما فاته منه، ويقول: لو علمت أنه بهذا المحل لم أفارقه، ولعل هذه الرواية وأمثالها جعلت علماء التراجم يعدون ابن راهويه من تلاميذ الإمام الشافعي).

وليس في الروايات التي تحكي إقامة الإمام الشافعي في مكة والتي امتدت حتى سنة ١٩٥ هجرية ما يدل على أنه دوَّن شيئا من فقهه أو أصوله في هذه المرحلة[٢٣]

فائدة: حلقة الإمام الشافعي في المسجد الحرام كانت سببا من أسباب انتشار ذكره وشهرته في سائر البلاد الإسلامية آنذاك؛ فالحج كان ومازال بمثابة المؤتمر العام

---

[٢٣] وقد أحسن العلامة محمد أبو زهرة في تعليله لطول مكث الإمام الشافعي في مكة هذه المرة بقوله: (... ويصح لنا أن نفهم من مقامه الطويل في مكة بعيدا عن ضجة العراق وتناحر الآراء فيه، أنه فعل ذلك ليتوافر له الانصراف الكافي والتأمل المبصر لاستخراج هذه القواعد... (يعني قواعد استنباط الأحكام)...

للمسلمين، يجتمعون فيه من جميع أقطارهم، ومعهم الخلفاء والولاة والعلماء والتجار وغيرهم.

ثم شرع الناظم –وفقه الله –يتكلم عن رحلة الإمام الشافعي من مكة إلى بغداد مرة أخرى، فقال:

ثُمَّ إِلَى (بَغْـــدَادَ) عَـــادَ؛ فَعَقَـــدْ	٤٦	مَجْلِسَـــهُ الفِقْهِـــيَّ فِيهَـــا، وَرَصَـــدْ
مَذْهَبَـــهُ فِي الفِقْـــهِ وَالأُصُـــولِ	٤٧	عَلَـــى قَـــدِيمِ قَوْلِـــهِ المَنْقُـــولِ
فَـــأَلَّفَ «الحُجَّـــةَ» و«الرِّسَـــالَةْ»	٤٨	أَوَّلَ مَـــا صَـــنَّفَهُ وَقَالَـــهْ

– وصول الإمام الشافعي إلى بغداد وعرضه لمذهبه فيها –

غادر الإمام الشافعي مكة المكرمة عام ١٩٥هجرية، بعد أن أمضى فيها ست سنوات قضاها في تعليم الفقه وتدريسه، ليصل إلى عاصمة الخلافة بغداد زهرة مدائن ذاك الزمان في رحلته الثانية إليها[٢٤]

سبب عودة الإمام الشافعي إلى بغداد مرة ثانية

لم ترو كتب السير والتراجم من الروايات ما يبرر صراحة سبب انتقال الإمام الشافعي من مكة إلى بغداد في هذه المرحلة، إلا أنه يمكن القول أن هدفه من هذه الرحلة هو البدء بتدوين مذهبه أصولا وفروعا وعرضه على الأمة بعد أن استقل به، و ذلك لأمرين:

[٢٤] وقد أحسن العلامة محمد أبو زهرة في تعليله هذه الرحلة بقوله: (.. ولعله – أي الإمام الشافعي– عندما انتهى إلى قدر يصح إخراجه وعرضه للجمهرة من الفقهاء سافر إلى بغداد عِشِّ الفقهاء جميعا، إذ ضعف أمر المدينة بعد وفاة مالك رضي الله عنه، وبعد أن صار ببغداد أهل الرأي وأهل الحديث معا).

الأول: أن أهم ما فعله الإمام الشافعي في بغداد في هذه الزيارة الثانية إليها هو تدوينه لكتابي (الرسالة في الأصول) و(الحجة في الفقه) كما سيأتي بيانه

الثاني: الصفات التي اتصفت بها بغداد في ذلك العصر، والتي خبرها الإمام الشافعي في زيارته الأولى إليها، والتي جعلت فيها من مقومات نشر المذهب وعرضه على الأمة أكثر من غيرها من مدائن ذاك الزمان[٢٥]

ومما يعضد ذلك، ما نقله الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية عن يونس بن عبد الأعلى الصدفي قال: (قال لي الشافعي: هل رأيت بغداد؟ قلت: لا! فقال: ما رأيت الدنيا)، وقال الشافعي: (ما دخلت بلدا قط إلا عددته سفرا، إلا بغداد فإني حين دخلتها عددتها وطنا).

أين أقام الشافعي ببغداد؟

اتخذ الإمام الشافعي لنفسه حلقة في الجامع الكبير الذي بناه الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، وكانت حلق العلم قد ازدحمت فيه، فأخذ يعرض فقهه ويجيب المستفتين والسائلين مدللا ومقعدا لقواعد الاستدلال، وكانت الأسئلة الواردة عليه في هذه الحلقة من أتباع المذاهب الأخرى أشد وأعمق من تلك الواردة عليه في حلقته في المسجد الحرام، وكثيرا ما كانت تنقلب تلك الأسئلة إلى مناظرات فقهية تجلى فيها رسوخ قدم الإمام الشافعي في العلم، وجمعه بين فقه مدرستي أهل الرأي وأهل الحديث، كما دلت على ذلك الروايات المسندة التي رواها علماء التراجم والسير بهذا الشأن، ومن ذلك ما أخرجه الحافظ البيهقي بسنده إلى إبراهيم الحربي قال: (قدم الشافعي

---

[٢٥] فهي عاصمة الخلافة ،وإليها يفد الأمراء والولاة والأدباء والشعراء، وسوق العلم فيها رائجة، والمناظرات في مساجدها محتدمة، ومدونات شتى العلوم في مكتباتها العامة متوفرة، فمكتبة بيت الحكمة فيها أصبحت قبلة لطلاب العلم بما تزخر به من نفائس الكتب، ولا شك أن بغداد كانت مركز النشاط في تدوين العلوم الذي امتاز به هذا العصر عن سابقه.

بغداد وفي المسجد الجامع الغربي عشرون حلقة لأصحاب الرأي، فلما كان يوم الجمعة الثانية لم يثبت منها إلا ثلاث حلق أو أربع).

تجدد لقاء الإمام أحمد بشيخه الإمام الشافعي

تجدد لقاء الإمام أحمد بن حنبل بشيخه الإمام الشافعي في بغداد وملازمته له وثناؤه عليه، وفي ذلك أخرج الحافظ البيهقي وابن أبي حاتم -واللفظ له - بسنديهما إلى الإمام أحمد يقول: (كانت أقضيتنا أصحاب الحديث في أيدي اصحاب أبي حنيفة ما تنزع حتى رأينا الشافعي، وكان أفقه الناس في كتاب الله - عز وجل - وفي سنة رسول الله ما كان يكفيه قليل الطلب في الحديث)

وتفسير ما قاله الإمام أحمد هو أنه لما جاء الإمام الشافعي إلى بغداد سنة ١٩٥ هجرية أخذ يتعرض في حلقته إلى المسائل المتداولة في فقه مدرسة أهل الرأي وحلقات أصحاب أبي حنيفة، لكن بأسلوب جديد يحيل فيه دوما على نصوص الكتاب والسنة وآثار الصحابة وأقضيتهم، فهو يدور في فلك النصوص الوافرة في حلقته إعمالا لها أو قياسا عليها، فانتقل بأصحاب الحديث من سرد النصوص وتفسيرها إلى ما افتقروا إليه وحال دون ممارستهم للفقه العملي بتولي القضاء، ألا وهو الاجتهاد في استنباط الأحكام من النصوص ثم الاجتهاد في تطبيقها وهو ما يسمى (بالاجتهاد في تحقيق مناط علة الحكم)، ولعل فهم مناط الحكم علته – تخريجا وتحقيقا هو ما قصده الإمام أحمد بن حنبل في الرواية سابقة الذكر.

وهكذا أخذ الإمام الشافعي يزرع فقهه للكتاب والسنة في قلب أرض مدرسة أهل الرأي بطريقة فريدة لم يسبق إليها، فوصف لذلك بأنه جمع بين مدرسة أهل الحديث

في حفظ نصوص السنة وآثار الصحابة والتثبت منها، ومدرسة أهل الرأي في حسن الاستنباط من النصوص والقياس عليها، كما قرر المؤرخون للفقه الإسلامي.

واستمر على حاله هذا سنتين يبث مذهبه –الذي عرف بالقديم – ويدونه، ولعل أبرز تلاميذه في هذه المرحلة أبو ثور الكلبي وأبو علي الكرابيسي والحسن الزعفراني،و في هذا يقول الناظم وفقه الله:

وأَبْـرَزُ الطُّـلَّابِ فِيهَـا: الكَلْـبِي	٤٩	مُفْـتِي العِـرَاقِ؛ فَاسْـتَمِعْ بِحُـبِّ
كَـذَا الكَرَابِيسِـيْ أَبُـو عَلِـيّ	٥٠	وَالزَّعْفَـرَانِيُّ أَبُـو عَلِـيّ

– تلاميذ الإمام الشافعي العراقيون –

١– أبو ثور الكلبي:

هو أبو عبد الله إبراهيم بن خالد الكلبي البغدادي، لقبه أبو ثور، ولد ببغداد سنة ١٧٠ هجرية، كان من أصحاب الرأي في بغداد، حتى جاء الإمام الشافعي إليها في القدمة الثانية له، فحضر مجلسه وصار من أصحابه، ونقل عنه مذهبه القديم، وقد بلغ رتبة الاجتهاد، فإن تفرد برأي فلا يعد وجها في المذهب الشافعي، وهو ثقة في الحديث، روى عنه الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري وغيره، توفي ببغداد سنة ٢٩٠ هجرية.

ومن الروايات المفيدة التي تحكي تلقي أبي ثور عن الإمام الشافعي ما أخرجه ابن أبي حاتم والحافظ البيهقي – واللفظ له – بسنديهما إليه يقول: (لما ورد الشافعي – رضي الله عنه –العراق جاءني حسين الكرابيسي وكان يختلف معي إلى أصحاب الرأي، فقال: قد ورد رجل من أصحاب الحديث يتفقه فقم بنا: نسخر به، فقام

وذهبنا حتى دخلنا عليه، فسأله الحسين عن مسألة، فلم يزل الشافعي يقول: قال الله عز وجل وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أظلم علينا البيت، فتركنا بدعتنا واتبعناه).[٢٦]

٢- أبو علي الكرابيسي:

هو أبو علي الحسين بن علي الكرابيسي البغدادي، تفقه أولا على مذهب أهل الرأي، ثم تفقه على يدي الإمام الشافعي، وأصبح أحد رواة مذهبه القديم في العراق، وقد برع في علم الكلام والمناظرة، وكان من الفقهاء المتقدمين في معرفة الأصول والمحققين في تحرير المسائل عارفا بالحديث، وله تصانيف كثيرة في أصول الفقه وفروعه، وفي الجرح والتعديل، وقد تردد اسمه في معظم كتب المذهب الشافعي، توفي ببغداد سنة ٢٤٨ هجرية

ومن الروايات المفيدة في بيان تأثر الكرابيسي بالإمام الشافعي ما أخرجه ابن أبي حاتم بسنده إليه يقول: (قال لنا الشافعي: إن أصبتم الحجة في الطريق مطرحة فاحكوها عني فإني قائل بها؟)؛ أي أن الإمام الشافعي يتبع الدليل أينما كان ويقول به

[٢٦] و لعل أبا ثور اعتبر إعماله للرأي على حساب السنة هو من قبيل البدعة، وهذا يدل على شدة تأثره بفقه الإمام الشافعي ومنهجه، حتى إنه كان يقدمه على فقهاء التابعين فيما بعد، وفي ذلك أخرج الحافظ البيهقي بسنده إلى داود بن علي الظاهري يقول: كنت عند أبي ثور إذ دخل عليه رجل فقال: يا أبا ثور، أما ترى هذه المصيبة التي نزلت بالناس؟ قال: وما هي؟ قال: يقولون: إن الثوري أفقه من الشافعي، فقال: يا سبحان الله وقد قالوها؟! قال: نعم، قال: نحن نقول: إن الشافعي أفقه من إبراهيم النخعي وذويه، وقد جاءنا هذا بالثوري).

وأخرج ابن أبي حاتم بسنده أيضا إلى الكرابيسي وقد سئل عن الإمام الشافعي فقال: (ما أقول في رجل ابتدأ في أفواه الناس: الكتاب والسنة والاتفاق، ما كنا ندري ما الكتاب والسنة نحن ولا الأولون، حتى سمعنا من الشافعي: الكتاب والسنة والإجماع)

وقد أخرج الحافظ البيهقي بسنده إلى الكرابيسي يقول أيضا: (ما رأيت مجلسا قط أنبل من مجلس الشافعي، كان يحضره أهل الحديث وأهل الفقه وأهل الشعر، يأتيه كبراء أهل الفقه والشعر، فكل يتعلم منه ويستفيد).

وأخرج الحافظ البيهقي أيضا بسنده إلى الكرابيسي يقول: (رحمة الله على الشافعي، ما فهمنا استنباط أكثر السنن إلا بتعليم الشافعي أبي عبد الله إيانا)

٣- الحسن الزعفراني:

هو أبو علي الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني البغدادي، ولد سنة ١٧٣ هجرية تقريبا في بغداد وسكنها، ولازم الإمام الشافعي عندما قدم بغداد في رحلته الثانية إليها؛ فكان أثبت رواة مذهبه القديم، روى عنه الحديث الإمام محمد بن إسماعيل البخاري وأصحاب السنن الأربعة، وكان فصيحا بليغا رغم كونه نبطيا وليس بعربي، وكان يقرأ في مجلس الإمام الشافعي وفيه أحمد بن حنبل وأبو ثور والكرابيسي وغيرهم، توفي سنة ٢٦٠ هجرية في بغداد.

ومن الروايات المفيدة في بيان تلقي الزعفراني عن الإمام الشافعي ما أخرجه الحافظ البيهقي بسنده إلى الزعفراني يقول: (قدم علينا الشافعي - يعني بغداد- سنة خمس وتسعين ومائة، فأقام عندنا سنتين ثم خرج إلى مكة، ثم قدم علينا سنة ثمان وتسعين، فأقام أشهرا ثم خرج ...)

وفي رواية ثانية يقول: (كان أصحاب الحديث رقودا حتى أيقظهم الشافعي رضي الله عنه) وفي ثالثة يقول: (إني لأقراكتب الشافعي وتقرأ علي منذ خمسين سنة)، وهو الذي يروي عن الإمام الشافعي مقولته المشهورة: (ما ناظرت أحدا فأحببت أن يخطى) فيما أخرجه ابن أبي حاتم بسنده إليه.

ثم شرع الناظم – وفقه الله – في الكلام عن تنقل الإمام الشافعي بين بغداد ومكة، فقال:

وَبَـيْنَ **بَغْـدَادَ وَمَكَّـةَ** انْتَقَـلْ	٥١	فِي سَـنَتَيْنِ أَوْ ثَـلَاثٍ لَـمْ يَـزَلْ

– المرحلة السابعة من حياته وتنقله بين مكة وبغداد –

غادر الإمام الشافعي بغداد سنة ١٩٧ هجرية، متوجها إلى مكة المكرمة، فأقام بها قليلا حتى سنة ١٩٨ هجرية، ليعود إلى بغداد ثانية في رحلته الثالثة إليها، حيث أقام أشهرا، ثم غادرها سنة ١٩٩ هجرية، كما روى ذلك تلميذه البغدادي: الحسن الزعفراني .

وبعد استقراء الروايات التي تصف هذه المرحلة من حياة الإمام الشافعي، يلاحظ أن الباعث الرئيس على تردده بين العراق والحجاز ما بين سنة ١٩٧ هـ وسنة ١٩٩ هـ ثم انتقاله إلى مصر؛ هو بحثه عن التلاميذ الأكفياء ليحملوا عنه ما اجتمع لديه من علم غزير في الفقه وأصوله وسائر علوم الشريعة، خاصة مع سيادة مذهب الإمام أبي حنيفة في العراق، وسيادة مذهب الإمام مالك في الحجاز[٢٧]، ومما يدعم هذا الرأي ما يلي:

---

[٢٧] وقد علل العلامة محمد أبو زهرة قصر إقامة الإمام الشافعي في بغداد في زيارته الثالثة إليها، بما حصل في خلافة المامون (من سنة ١٩٨ هجرية إلى سنة ٢١٨ هجرية) من غلبة العنصر الفارسي على العنصر العربي في الدولة، وتقريب الخليفة للمعتزلة وتبنيه

١- إدراك الشافعي لضرورة التلاميذ الأكفياء للفقيه المجتهد؛ لضمان حسن نقل فقهه عنه واستقراره بعده، وهذا يتضح جليا في مقولته المشهورة عن الإمام الليث بن سعد بعد أن اطلع على فقهه، فيما أخرجه الحافظ البيهقي بسنده إلى الإمام الشافعي يقول: (الليث أفقه من مالك، إلا أن اصحابه لم يقوموا به)

وقد تحسر على عدم لقائه بالليث بن سعد رغم معاصرته له؛ فقد أخرج الحافظ البيهقي وابن أبي حاتم - واللفظ له - بسنديهما إلى الإمام الشافعي يقول: (ما اشتد علي فوت أحد من العلماء مثل فوت ابن أبي ذئب والليث بن سعد)[٢٨]

وأخرج أيضا الحافظ البيهقي بسنده إلى الإمام الشافعي يقول: (ما فاتني أحد فيمن أدركت زمانه كان أشد علي من الليث بن سعد وابن أبي الزناد)

فالإمام الشافعي يرى أن الليث بن سعد أفقه من أستاذه إمام دار الهجرة ومؤسس المذهب المالكي الإمام مالك بن أنس، لكن رغم ذلك كان فاقدا لأمر يراه الشافعي ضروريا؛ ألا وهو التلاميذ الذين هم بمستوى علمه وفقهه حتى يبقى هذا العلم والفقه بعده، لذلك فقد اندثر مذهب الليث بن سعد وبقيت منه بعض أقواله تتناقلها كتب الفقه المقارن للمذاهب الأخرى.

٢- رغم ثقة الإمام الشافعي بتلاميذه البغداديين أمثال الزعفراني وأحمد بن حنبل وغيرهما؛ إلا أن الأحداث السياسية التي حصلت في بغداد سنة ١٩٩ هجرية وما رافقها من تغيرات عدة كانت سببا كافيا لابتعاد الإمام الشافعي عن بغداد في تلك

لآرائهم، ومعاداته لمخالفيهم، وهذه بيئة ينفر منها الإمام الشافعي وهو الفقيه القرشي وإمام أهل السنة في زمانه، مما حمله على الابتعاد إلى مصر متفرغا لنشر وتدوين مذهبه الجديد).

[٢٨] وقد نقل الحافظ ابن حجر العسقلاني هذه الرواية شارحا لها في توالي التأسيس

السنة، كما علل العلامة محمد أبو زهرة، فقد مكن المأمون لأخواله الفرس وقرب المعتزلة، ونصر معتقداتهم بسيفه، فكانت سنة١٩٨هـ هي سنة فتن في بغداد، لما حصل فيها من اقتتال بين جند المأمون وجند أخيه الخليفة الأمين ليقتل الأخير بعدها شر قتلة، ويأخذ المأمون البيعة لنفسه.

٣- كان الإمام الشافعي قد جمع علم الحجاز واليمن والعراق، فتاقت نفسه لشد الرحال إلى مصر، ولم يكن قد زارها من قبل، وفيها فقه الإمام الليث بن سعد وبقية من أصحابه، وفقه شيخه الإمام مالك بن أنس، وقد وفق الإمام الشافعي باختياره مصر التي كانت تنعم بهدوء واستقرار سياسي، ويسر الله له فيها تلاميذ فقهاء مخلصين أحسنوا نقل مذهبه عنه ونشره بعده كما سيأتي بيانه.

ومن الجدير بالذكر هنا أن الإمام الشافعي لما غادر بغداد سنة ١٩٩ هجرية لم يرتحل إلى مصر مباشرة، وإنما توجه إلى الحجاز (مكة أو المدينة)، ويبدو أن ذلك كان في موسم الحج فلقيه والي الدولة العباسية على مصر، فاستصحبه معه إلى مصر فدخلها برفقته كما ذكر الحافظ بن عبد البر، والذي رجحه الإمام النووي أن ذلك كان في آخر سنة ١٩٩ هجرية، جمعا بين الروايات المتعددة.

فائدة: إن الملحظ الذي أدرك الإمام الشافعي أهميته لكل فقيه مبدع، ألا وهو المجتمع الهادئ المستقر ووجود التلاميذ المخلصين، هو أمر يحتاجه في سائر الأزمان كل من تصدى لدراسة هذه الشريعة الربانية، وبيان أحكامها، واستجلاء مقاصدها، وأسال مداده بفقه نافع، رجاء ألا ينقطع به عمله بعد موته.

ثم أتت المرحلة الأخيرة من حياة الإمام، وهي رحلته إلى مصر واستقراره فيها، فقال الناظم وفقه الله:

حَتَّى اسْتَقَرَّ (**مِصْرَ**) بَعْدَ أَنْ قَرَنْ	٥٢	عِلْمَ العِرَاقِ والحِجَازِ وَاليَمَنْ
وَكَانَ ذَا فِي عَامِ تِسْعَةٍ وَمَعْ	٥٣	تِسْعِينَ بَعْدَ مِئَةٍ كَمَا وَقَعْ
مُدَوِّنًا مَذْهَبَهُ الجَدِيدَا	٥٤	وَنَاشِرًا أُصُولَهُ تَقْعِيدَا
فِي «الأُمِّ» إِمْلَاءً، وَفِي «الرِّسَالَهْ»	٥٥	تَجْدِيدَهُ فِيمَا مَضَى مَقَالَهْ

– المرحلة الأخيرة من حياته في مصر ووفاته فيها –

رحل الإمام الشافعي إلى مصر في أواخر سنة ١٩٩ هجرية، واستوطنها ناشرا ومدونا فيها مذهبه الجديد، خلال السنوات الأربع التي قضاها فيها.

وكلام الناظم – وفقه الله – عن هذه المرحلة الأخيرة من حياة الإمام الشافعي دار حول الحديث عن:

١- نشاطه العلمي فيها.

٢- أبرز تلاميذه المصريين.

٣- مرضه ووفاته.

ومن المناسب قبل الكلام عن هذه المحاور لتي تعرض لها الناظم، أن نعرض للنشاط العلمي في مصر قبل قدوم الإمام الشافعي إليها، ليتضح جليا الأثر الكبير الذي أحدثه الإمام بقدومه إليها.

النشاط العلمي للإمام الشافعي في مصر

من الروايات المفيدة التي تصف الحالة العلمية في مصر قبل قدوم الإمام الشافعي إليها ما أخرجه الحافظ البيهقي بسنده إلى الربيع بن سليمان المرادي يقول: (رأيت الشافعي رحمه الله بنَصيبين قبل أن يدخل مصر... وقال لي يوما: كيف تركت أهل

مصر؟ فقلت: تركتهم على ضربين: فرقة منهم قد مالت إلى قول مالك وأخذت به واعتمدت عليه وذبت عنه وناضلت عنه، وفرقة قد مالت إلى قول أبي حنيفة فأخذت به وناضلت عنه، فقال (أي الشافعي): أرجو أن أقدم مصر إن شاء الله وأتيهم بشيء أشغلهم به عن القولين جميعا، قال الربيع: ففعل ذلك -والله- حين دخل مصر.)

دخل الإمام الشافعي مصر وبدأ نشاطه العلمي معلما للفقه وأصوله وما اتصل بهما من علوم الشريعة، ومدونا للكتب، فكانت إقامته في مصر على قصرها - تزخر بإنتاج علمي ضخم تمثل في أمرين هما:

الأول: في نقل فقهه وأصوله إلى عدد كبير من التلاميذ الذين أصبحوا بعده من أعلام الفقهاء في عصرهم.

الثاني: في تدوين مذهبه الجديد وأصوله في كتابي الأم والرسالة الجديدة وغيرهما.

ومن الروايات المفيدة في هذا الشأن ما أخرجه الحافظ البيهقي وابن أبي حاتم - واللفظ له - بسنديهما إلى بحر بن نصر الخولاني المصري يقول: (قدم الشافعي من الحجاز، فبقي بمصر أربع سنين، ووضع هذه الكتب في أربع سنين، ثم مات، وكان أقدم معه من الحجاز كتب ابن عيينة، وخرج إلى يحيى بن حسان فكتب عنه، وأخذ كتبا من أشهب بن عبد العزيز فيها آثار وكلام من كلام أشهب، وكان يضع الكتب بين يديه ويصنف الكتب، فإذا ارتفع له كتاب جاءه صديق له يقال له ابن هَرم، فيكتب ويقرأ عليه البويطي وجميع من يحضر ليسمع في كتاب ابن هرم، ثم ينسخونَه

بعد، وكان الربيع على حوائج الشافعي، فربما غاب في حاجة، فيعلم، فإذا رجع قرا الربيع عليه ما فاته)[٢٩]

تطور فقه الإمام الشافعي في رحلته المصرية

دون الإمام الشافعي في مصر وأفتى بما عرف بمذهبه الجديد وذلك في مقابلة فقهه الذي ظهر في مكة بعد سنة ١٨٩ هجرية، ودونه في بغداد بعد سنة ١٩٠ هجرية، في كتابي الحجة والرسالة العراقية، والذي عرف بالمذهب القديم

وفي الإشارة إلى هذا التطور في فقه الإمام الشافعي الذي ظهر جليا في مدوناته المصرية أخرج الحافظ البيهقي وابن أبي حاتم – واللفظ له – بسنديهما إلى ابن وارة، يقول: (.. سألت أحمد بن حنبل، ما ترى في كتب الشافعي التي عند العراقيين، أحب إليك أو التي بمصر؟ قال: عليك بالكتب التي وضعها بمصر، فإنه وضع هذه الكتب بالعراق ولم يحكمها، ثم رجع إلى مصر فأحكم تلك)

ومن الروايات المفيدة في بيان غزارة الإنتاج العلمي للإمام الشافعي خلال إقامته في مصر – على قصرها نسبيا – ما أخرجه الحافظ البيهقي بسنده إلى الربيع بن سليمان المرادي يقول: (أقام الشافعي هاهنا –يعني بمصر– أربع سنين فأملى ألفا وخمسمائة ورقة، وخرّج كتاب الأم ألفي ورقة، وكتاب السنن وأشياء كثيرة كلها في أربع سنين، وكان علي شديد العلة –إشارة إلى مرض وفاته–...).

ثم أشار الناظم إلى أشهر وأبرز تلامذة الإمام في مصر، فقال:

---

[٢٩] ونقل الحافظ بن حجر العسقلاني هذه الرواية أيضا، والتي يتضح منها جليا أن الإمام الشافعي كان يدون ويعلِّم ويملي في مجلس واحد بطريقة لم يسبق إليها، وهي تدل على عظيم فقهه ورسوخ قدمه في العلم حتى استطاع أن يجعل من تلاميذه نساخا لفقهه وحفاظا له في آن واحد، وهو خلال ذلك يجدد في مذهبه، ويدربهم الاجتهاد ويحثهم على الاستنباط، مما جعلهم يتدرجون في مراتب المجتهدين، من خلال درس إمامهم الذي كان أشبه بما يعرف في زماننا بالندوة العلمية.

وَكَـانَ مِـنْ طُلَّابِـهِ: **البُـوَيْطِي**	٥٦	سَـيِّدُنَا، **وَالـمُزَنِي** ذُو الحَـوْطِ
ثُمَّ **الرَّبِيـعُ** -الثَّالِـثُ- الـمُرَادِي	٥٧	مَـوْلَاهُمُ الفَقِيـهُ ذُو الرَّشَـادِ

- أشهر تلاميذ الإمام الشافعي المصريين -

١- البويطي

هو يوسف بن يحيى أبو يعقوب البويطي، نسبة إلى بويط، وهي قرية في صعيد مصر تتبع مديرية بني سويف، وقد صحب الإمام الشافعي في مصر، وخلفه في حلقة الدرس والإفتاء بعد وفاته، وكان مجتهدا زاهدا ورعا، وتتلمذ على يديه خلق كثير نشروا مذهب إمامه الشافعي، وتردد اسمه في كل كتب مذهب الشافعية، ومن مصنفات البويطي: كتاب المختصر، اختصره من كلام الإمام الشافعي، وله كتاب الفرائض أيضا، والبويطي من أبرز رواة المذهب الجديد، ويعتبر من المجتهدين في المذهب، ولما كانت المحنة في قضية خلق القرآن حمل إلى بغداد في أيام الخليفة الواثق وامتنع عن القول بأن القرآن مخلوق، فسجن حتى مات في سجنه سنة ٢٣١هجرية، وكان -رحمه الله -إذا سمع أذان الجمعة في السجن يغتسل ويلبس ثيابه ويخرج إلى باب السجن قاصدا الصلاة، فيمنعه السجان، فيقول: (اللهم إني أجبت داعيك فمنعوني.)

وكان البويطي مقدما عند الإمام الشافعي على بقية تلاميذه، حتى إنه كان يحيل عليه الفتوى، كما أخرج ابن أبي حاتم بسنده إلى الربيع بن سليمان المرادي قال: (كان لأبي يعقوب البويطي من الشافعي منزلة، وكان الرجل ربما يسأله عن المسألة فيقول: سل أبا يعقوب، فإذا أجابه: أخبره، فيقول: هو كما قال، وربما جاء إلى الشافعي رسول صاحب الشرطة يستفتيه فيوجه الشافعي أبا يعقوب البويطي، ويقول: "هذا لساني")

واستخلف الإمام الشافعي – رحمه الله – البويطي، ليأخذ مكانه في حلقة التدريس في مرضه، واستمر خليفة له بعد موته، وفي ذلك أخرج الحافظ البيهقي بسنده إلى الربيع بن سليمان المرادي يقول: (لما مرض الشافعي مرضه الذي توفي فيه جاء محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ينازع البويطي في مجلس الشافعي.. فجاء الحميدي – وكان تلك الأيام بمصر – فقال: (قال الشافعي: ليس أحد أحق بمجلسي من يوسف بن يحيى، وليس أحد من أصحابي أعلم منه ...)

فائدة: باستقراء ما كتبه علماء التراجم والسير عن البويطي و الروايات التي تحكي صحبته للإمام الشافعي يتضح جليا أن البويطي كان أفقه تلاميذ الإمام الشافعي عند وفاته سنة ٢٠٤ هجرية، وإن كان كل من المزني والربيع المرادي قد بلغا فيما بعد مبلغا عظيما في الفقه وفي خدمة ونقل المذهب الشافعي والدفاع عنه، فاق ما حصل من البويطي، مع الأخذ بعين الاعتبار أن كلا منهما قد عاش بعد وفاة البويطي أكثر من ثلاثين عاما كما سيأتي في ترجمتهما، علاوة على أن سجن البويطي في بغداد بسبب رفضه القول بخلق القرآن حتى مات في سجنه قد حال دون استفادة الناس من علمه.

٢– المزني:

هو إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل أبو إبراهيم المزني، نسبة إلى مزينة وهي قبيلة من مضر، ولد في مصر سنة ١٧٥ هجرية، وصحب الإمام الشافعي بعد قدومه إلى مصر، وكان من أخص تلاميذه، وكان فقيهت قوي الحجة في المناظرة والدفاع عن مذهب إمامه، مع زهده وورعه وكثرة عبادته، توفي في مصر سنة ٢٦٤ هجرية. قال عنه الحافظ بن عبد البر بعد أن ترجم له: وكان أعلم أصحاب الشافعي بالنظر، دقيق

الفهم والفطنة، انتشرت كتبه ومختصراته إلى أقطار الأرض شرقا وغربا، وكان تقيا ورعا دينا، صبورا على الإقلال والتقشف.

وقال عنه الحافظ بن حجر العسقلاني بعد أن ترجم له: (... وكان آية في الحجاج والمناظرة عابدا عاملا متواضعا غواصا على المعاني)[٣٠]

صنف المزني الكثير من الكتب منها: الجامع الكبير والجامع الصغير والمنثور والمسائل المعتبر، إلا أن أشهر كتبه: المختصر الصغير، المشهور بمختصر المزني، فهو أصل الكتب المصنفة على مذهب الإمام الشافعي، وعلى مثاله رتب فقهاء الشافعية كتبهم، ولكلامه فسروا وشرحوا، وقد أخرج الحافظ البيهقي بسنده إلى المزني يقول: (لو أدركني الشافعي لسمع مني هذا المختصر)

وقال الحافظ البيهقي في وصفه: (فلا أعلم كتابا صنف في الإسلام أعظم نفعا وأعم بركة وأكثر ثمرة من كتابه؛ يعني: المختصر)

ولا عجب في ذلك فقد تفقه شيخه الإمام الشافعي على يد الإمام مالك بن أنس ثم نضجت ملكته الفقهية وتوفرت لديه مقومات الاجتهاد حتى استقل بمذهبه أصولا وفروعا، وإن كان استقلال الإمام الشافعي أظهر وأقوى مما حصل من تلميذه المزني، فالإمام الشافعي لم يؤلف كتبا ومختصرات على مذهب الإمام مالك، بل على العكس من هذا فقد دوَّن كتاب اختلاف مالك والشافعي.

فائدة: حصول مثل هذه الظاهرة لعدد من أصحاب الإمام الشافعي ألا وهي بلوغهم درجة الاجتهاد المطلق، وتبنيهم لآراء واختيارات تخالف صراحة أقوالا

---

[٣٠] ونقل جمال الدين الإسنوي في طبقاته ما مفاده أن المزني انتهى حاله إلى كونه صاحب مذهب مستقل، وذلك ما خلص إليه أيضا الدكتور محمد حسن هيتو عند ترجمته للمزني حيث قال: (... والخلاصة أن ما كان من أقواله موافقا لأقوال الإمام وجارية على قواعده فهو من المذهب لا محالة، وإن كان رأيا له مخالفا به قول الإمام وقواعده فهذا من مذهبه، فقد كان صاحب مذهب).

لإمامهم؛ لهو دليل واضح على أن الإمام الشافعي كان من دعاة الاجتهاد واتباع الدليل وفقا لقواعد أصول الفقه، وأنه قد ربَّى تلاميذه على ذلك.

٣- الربيع المرادي:

هو الربيع بن سليمان بن عبد الجبار المرادي بالولاء، المصري مولدا ووفاة، أبو محمد، ولد في مصر سنة ١٧٤ هجرية، وصحب الإمام الشافعي بعد قدومه إلى مصر ولازمه أكثر من أي تلميذ آخر، وروى كتبه المصرية، وكان ثقة ثبتا فيما يرويه حتى إن فقهاء الشافعية يقدمون روايته إذا تعارضت مع رواية المزني، وقد أثنى عليه الإمام الشافعي، وجعله مؤذنا في المسجد الجامع بالفسطاط والمعروف اليوم بمسجد عمرو بن العاص، وتردد اسمه في كل كتب المذهب فكان من أشهر أعلامه، وإذا أطلق الربيع في كتب المذهب فالمراد هو، وإن قصد الربيع الجيزي قيد ب(الجيزي)، توفي الربيع المرادي في مصر سنة ٢٧٠ هجرية عن ستة وتسعين عاما؛ وعليه فهو أطول تلاميذ الإمام الشافعي عمرا، وأكثرهم بعده مكثا، فقد عاش ستة وستين عاما بعد وفاة إمامه الشافعي، وكان ذلك عاملا في انتشار كتب الإمام الشافعي المصرية بالسند العالي، حيث أصبحت الرحال تشد إلى المرادي من سائر الأمصار لسماع كتب الإمام عنه، قال عنه الحافظ بن عبد البر: (... صحب الشافعي طويلا وأخذ عنه كثيرا وخدمه، وكانت الرحلة إليه في كتب الشافعي...)، وليس للربيع المرادي مصنفات حيث اقتصر دوره على رواية كتب الإمام الشافعي، دون أن يزيد عليها أو يكون له اختياراته على غرار ما حصل للمزني.

فائدة: إذا كان الإمام الشافعي قد تميز عن الأئمة الثلاثة أبي حنيفة ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل في أنه دون مذهبه أصولا وفروعا بنفسه، فقد يسر الله له الربيع المرادي

لينقل هذا التدوين بدقة كبيرة وبالسند العالي – من غير واسطة بينه وبين الشافعي – مشافهة إلى عدد هائل من التلاميذ، الذين وردوا إلى مصر خلال أكثر من نصف قرن لسماع كتب الإمام الشافعي عنه، وعليه فمن غير المبالغة أن يقال: إن جهد الربيع المرادي كان أحد مقومات استقرار المذهب الشافعي وعدم اندثاره.

ومن دلالات كثرة ملازمة الربيع المرادي لشيخه الإمام الشافعي أن خرج معه مرابطا إلى ثغر مدينة الإسكندرية المصرية على ساحل البحر المتوسط، كما أخرج الحافظ البيهقي بسنده إلى المرادي يقول: (خرجت مع محمد بن إدريس الشافعي من الفسطاط إلى الإسكندرية: مرابطا، وكان يصلي الصلوات الخمس في المسجد الجامع، ثم يسير إلى الحرس فيستقبل البحر بوجهه جالسا يقرأ القرآن في الليل والنهار حتى أحصيت عليه ستين ختمة في شهر رمضان)، ونقل الحافظ بن حجر العسقلاني هذه الرواية أيضا

فائدة: إن الإمام الشافعي أجاد : في صباه مهارة الرمي، وبقي على صلة بهذه المهارة طيلة حياته، من باب عمله بقول الله تعالى: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) [الأنفال: ٦٠]، ورباطه في ثغر الإسكندرية دليل على ذلك، فهو وإن كان إماما في الفقه وبلغ رتبة الاجتهاد المطلق فيه، إلا أنه كان إماما للناس في العمل أيضا، إذ إنه بخروجه إلى الإسكندرية مرابطا يعلم الناس أن فقه الدين الوارد في الحديث النبوي: (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين) : إن يشمل فقه أحكام الشرع والعمل بها أيضا ما استطاع العبد إلى ذلك سبيلا، فالعمل – عند الإمام الشافعي – لم ينفصل عن التأليف والتدوين، ومن ذلك أنه أفرد في مصنفه الأم كتاب بعنوان: كتاب السبق والنضال، كان من جملة ما قاله فيه: (... قال الله تبارك وتعالى فيما ندب إليه أهل دينه: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) وقال أهل

العلم بالتفسير أن القوة هي الرمي..) ، واختار رحمه الله أن يجعل رباطه في شهر رمضان ليجمع بين فضائل الرباط والصيام والقيام، فرضي الله عنه من عالم عامل ..

قال الناظم وفقه الله:

هَـذَا؛ وَقَـدْ كَـانَ الإِمَـامُ عَلَمَـا	٥٨	أَثْـنَى عَلَيْـهِ النَّـاسُ طُـرًّا؛ فَاعْلَمَـا

– ثناء العلماء على الإمام الشافعي ومعرفتهم لقدره –

تواترت النقول عن الأئمة الأعلام في الثناء على الإمام الشافعي رحمه الله، ومن ذلك ما أشار الناظم – حفظه الله – إليه في هذه الأبيات، فقال:

فـ: «سَـيِّدٌ لِلفُقَهَـا»؛ يَقُـولُ	٥٩	عَنْـهُ الحُمَيْـدِيُّ، بِـذَا النُّقُـولُ
وَمَـا رَأَيْـتُ مِثْلَـهُ فِي العَقْـلِ	٦٠	كَـذَا يَقُـولُ الصَّـدَفِي فِي النَّقْـلِ
نَاظَرْتُـهُ يَوْمًـا، وَبَعْـدَها نَطَـقْ:	٦١	نَكُـونُ إِخْـوَانًا وإِنْ لَـمْ نَتَّفِـقْ
وَكَـانَ مِـنْ أَفْصَـحِ مَـا رَأَيْـتُ	٦٢	عَـنْ أَحْمَـدِ بْـنِ حَنْبَـلٍ نَقَلْـتُ
وَقَـالَ لِابْـنِ رَاهَوَيْـهِ: لَـمْ تَـرَا	٦٣	عَيْنَـاكَ مِثْـلَ الشَّـافِعِيِّ فِي الـوَرَى
وَكَـانَ لِلـدُّنْيَا كَشَـمْسٍ صَـافِيَةْ	٦٤	وَلِـلْأَنَامِ صِـحَّةً وَعَافِيَـةْ
فَهَلْ تَرَى مِنْ عِوَضٍ عَمَّا ذُكِرْ؟!	٦٥	فَـذَا عَـنِ الإِمَـامِ أَحْمَـدٍ أُثِـرْ
وَلَـمْ يَكُـنْ فِي الفُقَهَـاءِ أَتْبَـعُ	٦٦	لِسُـنَّةٍ مِنْـهُ؛ كَـذَا عَنْـهُ اسْمَعُـوا

١- ما ورد عن الحميدى أنه كان إذا جرى عنده ذكر الشافعى يقول: حدثنا سيد الفقهاء الشافعى.

٢- وقال يونس الصدفي: (ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوما في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني، فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخوانا وإن لم نتفق في مسألة)

٣- وقال أحمد بن حنبل : كان الشافعي من أفصح الناس ، وكان مالك تعجبه قراءته لأنه كان فصيحا.

٤- وعن محمد بن عبد الله الرازي ، قال : سمعت ابن راهويه ، يقول : كنت مع أحمد بمكة ، فقال : تعال حتى أريك رجلا لم تر عيناك مثله . فأراني الشافعي .

٥- وعن عبد الله بن الإمام أحمد قال، قلت لأبي: أي رجل كان الشافعي، فإني أسمعك تكثر الدعاء له؟ فقال: يا بني: كان الشافعي رحمه الله كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس، فانظر هل لهذين من خلف أو عوض؟

٦- وعن عبد الملك بن حبيب بن ميمون بن مهران ، قال : قال لي أحمد بن حنبل : ما لك لا تنظر في كتب الشافعي ؟ فما من أحد وضع الكتب أتبع للسنة من الشافعي.وقال: ما رأيت أحدا أتبع للأثر من الشافعي .

قال الناظم وفقه الله:

وَكُلُّ مَا يُذْكَرُ مِمَّا صَنَّفَهْ	٦٧	فَهْوَ مِنَ الْأُمِّ كَذَاكَ؛ فَاعْرِفَهْ
لَكِنَّهُ رِوَايَةً يَخْتَلِفُ	٦٨	أَوْ بِزِيَادَاتٍ عَلَيْهِ يُعْرَفُ

- أهمية كتاب الأم -

صنف الإمام الشافعي التصانيف في الأصول والفروع، ونقلها عنه تلامذته الكبار، وأخصهم بالنقل عنه: الربيع المرادي كما تقدم.

ومن ذلك كتاب (الأم) الذي حوى كثيرا من المصنفات المستقلة التي وضعها الشافعي في الأصول والفروع، ولم يرتبها ترتيبا محددا، ولم يجمعها بين دفتي كتاب، حتى جاء تلاميذه كالبويطي والربيع، فرتبوها هذا الترتيب الذي بدا عليه "الأم".

ف"الأم" يضم بين دفتيه أنواعا من الكتب:

١- في الفروع، وهو الغالب.

٢- في الأصول، كالرسالة، واختلاف الحديث، وجماع العلم ..إلخ.

٣- في الفقه المقارن، كاختلاف مالك والشافعي، واختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلى ..إلخ.

٤- آيات الأحكام وتفسيرها، وقد ساقها أدلةً على الأحكام التي أثبتها.

٥- أحاديث الأحكام وآثارها، فقد ساقها مسندةً أدلةً على الأحكام التي يثبتها.

وأشار الناظم – وفقه الله – إلى اختلاف روايات الأم، باعتبار ما سبق من كونه من ترتيب تلامذة الشافعي كالبويطي والربيع، مما أوقع الاختلاف والزيادات بين تلك الروايات.

وفي هذا يقول العلامة أبو زهرة:

الخلاصة أن الأخبار متضافرة والأسانيد متصلة مثبتة أن الشافعي – رضي الله عنه – كان يدون كتبه، أنه دوَّن كتبا بالعراق ، ودوَّن مثلها بمصر ، وكان يكتب ثم يقرأ ما كتب تلاميذه، ثم ينسخونه، وأحيانا كان يملى ، وأن الربيع بن سليمان هو الذى روى كتب الشافعي التي انتهى إليها ، ودون آخر آراءه فيها ، وأن العلماء كانوا

يشدون الرحال إليه لنقل كتب الشافعي ، وأن الربيع قد سمع جلَّ هذه الكتب عن الشافعي ، وأن ما لم بسمع من أبواب الفقه قد ذكره هو في روايته ، وقد نصت عليه كتب التاريخ ، وهذا ياقوت يحصى ما لم يسمعه الربيع عن الشافعي من أبواب الفقه فيقول في معجمه : والذي لم يسمعه الربيع من الشافعى رضي الله عنه وأرضاه ؛ كتاب الوصايا الكبير ، وكتاب اختلاف أهل العراق على عليِ وعبد الله ، وكتاب ديات الخطأ ، وكتاب قتال المشركين ، وكتاب الإقرار والحكم بالظاهر ، وكتاب الأحباس و كتاب اتباع أمر رسول الله ، وكتاب مسألة الجنين ، وكتاب وصية الشافعي ، وكتاب ذبائح بني إسرائيل ، وكتاب غسل الميت ، وكتاب ما يتنجس الماء مما خالطه ، وكتاب الأمالي في الطلاق.

والربيع كان يحتاط كل الاحتياط ، فهو يذكر العبارات التي وجدها في نسخة منقولة عن الشافعي وسمعها منه ، ولو كان فيها خطأ في النقل ، فيثبته ثم يبين الخطأ ، وما يسمعه يقول: لم أسمعه ، ففي غسل الميت يقول: لم أسمع هذا الكتاب من الشافعي ، وإنما أقرؤه على المعرفة ، وفي كتاب إحياء الموات يقول : ولم أسمع هذا الكتاب ، وإنما أقرؤه على معرفة أنه من كلامه .

وقد كان أحيانا يعلق على المنقول ، فهو يذكر أحيانا بعض أقوال الشافعي ثم يبين أن له في المسألة قولا آخر يكون قد سمعه منه ، ولم يدونه ، وأحيانا يقول : رجع عن هذا القول بعد... وهكذا.

وقد نبهنا فيما نقلنا عن ابن حجر أن الشافعي قد كان يرجع عن بعض أقواله المدونة، ويبقى المدون كما هو ؛ لأن الرجوع كان بعد التدوين ، فيكتفي بالتنبيه

بالرجوع، فكان الربيع يروي الكتاب كما سمعه مدونا ، ثم يبين أنه رجع عن هذا الرأي ، أو أن آخر أقواله هو كذا.[٣١]

وَفَاتُـهُ بِمِصْـرَ عَـنْ (دَمِـي[٥٤]) ذُكِـرْ	٦٩	فِي رَجَـــبٍ وَبِالـــدَّوالِي مُشْـــتَهِرْ
فِي عَامِ (دُرْ[٢٠٤])؛ نَصَّ المرَادِي الأَلْمَعِي	٧٠	فَـــرَحِمَ اللهُ الإِمَـــامَ الشَّـــافِعِي

– مرض الإمام الشافعي ووفاته –

مرض الإمام الشافعي رحمه الله بمرض الباسور[٣٢] في آخر حياته، وقد طال عليه المرض واشتد، وانتهى الأمر بوفاته نتيجة للنزف الشديد والمتواصل، وفي ذلك أخرج الحافظ البيهقي وابن أبي حاتم واللفظ له – بسنديهما إلى يونس بن عبد الأعلى يقول: (ما رأينا أحدا لقي من السقم ما لقي الشافعي، فدخلت عليه فقال لي: يا أبا موسى اقرأ علي ما بعد العشرين والمائة من آل عمران وأَخِفَّ القراءة ولا تثقل، فقرأت عليه، فلما أردت القيام قال: لا تغفل عني فإني مكروب)

وأخرج الحافظ البيهقي بسنده إلى الربيع المرادي يصف مرض الإمام الشافعي فيقول: (... وكان شديد العلة فكان ربما يخرج الدم منه وهو راكب حتى تملأ سراويله ومركبه وخفه)

وكان الإمام الشافعي راضيا بقدر ربه، صابرا على المرض، محتسبا عند الله تعالى، قدوةً لتلاميذه وللمسلمين، واشتد المرض على الإمام الشافعي حتى فاضت روحه

---

[٣١] الشافعي لأبي زهرة ص١٤٨ –١٤٩

[٣٢] البواسير هي أوردة متورمة في الشرج والمستقيم السفلي، تشبه الدوالي الوريدية، وهو الذي أشار إليه الناظم بقوله (وبالدوالي مشتهر)

الشريفة في آخر أيام شهر رجب سنة ٢٠٤ هجرية عن أربع وخمسين سنة، كما أخرج الحافظ البيهقي والحافظ بن عبد البر وابن أبي حاتم – واللفظ له – بأسانيدهم إلى الربيع المرادي يقول: (توفي الشافعي ليلة الجمعة بعد العشاء الآخرة بعدما صلي المغرب آخر يوم من رجب، ودفناه يوم الجمعة، فانصرفنا فرأينا هلال شعبان سنة أربع ومائتين).

وقد استعمل الناظم – وفقه الله – طريقة عد الجمَّل، للإشارة إلى عمر الإمام الشافعي – رحمه الله – عند وفاته، فقال: (وفاته بمصر عن "دمي")، وهو أربع وخمسون عاما كما تقدم.

(د) ٤ ، (م) ٤٠، (ي) ١٠ =فالمجموع: ٥٤ عاما.

وأشار إلى سنة وفاته، فقال: (في عام در)، يعني ٢٠٤هـ

(د) ٤، (ر) ٢٠٠= فالمجموع: ٢٠٤.

فرحم الله الإمام الشافعي رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته..